الفصل الأول

مفهوم التقوى

onefarda1.com

obelkandi.com

يقصد بهذا الفصل دراسة مواضع لفظة التقوى في القرآن الكريم، وتبيين علاقة هذه المواضع بعضها ببعض، وما قصد إليه القرآن الكريم من معانٍ وإرشادات ينبغي على المؤمن فهمها والالتزام بها. لزم لذلك أن نقدم تعريف التقوى في كلام أهل اللغة، ثم نشرع في تعريف التقوى في الشرع، ثم إحصاء لمادة التقوى في القرآن الكريم، وقد جعلنا هذا الفصل في عشرة مطالب:

المطلب الأول: مادة التقوى ومعناها.

المطلب الثانى: صور المادة إحصائياً.

المطلب الثالث: معنى التقوى في الشرع وتفسير النصوص والربط بينها.

المطلب الرابع: ولكن يناله التقوى منكم.

المطلب الخامس: محل التقوى.

المطلب السادس: لباس التقوى.

المطلب السابع: كلمة التقوى.

المطلب الثامن: خير الزاد التقوى.

المطلب التاسع: بقية مواضع التقوى.

المطلب العاشر: التقوى أساس قبول العمل.

المطلب الأول
مادة التقوى ومعناها

قال الراغب الأصبهاني في مادة «وقى»: «الوقاية: حفظ الشيء مما يؤذيه ويضره، يقال: وقيت الشيء أقيه وقاية ووقاء، قال تعالى:﴿ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [الدخان: ٥٦]. والتقوى: جعل النفس في وقاية مما يخاف. هذا تحقيقه، ثم يسمى الخوف تارةً تقوى، والتقوى خوفاً، حسب تسمية مقتضَى الشيء بمقتضيه، والمقتضِي بمقتضاه».[١]

قال في اللسان[٢]: «وقى وقاه الله وَقْياً»، ووقاية: صانه، ووقيت الشيء أقيه إذا صنته وسترته عن الأذى. وفى الحديث: «فوقى أحدكم وجهه النار». وهذا اللفظ خبر أريد به الأمر، أى ليق أحدكم وجهه النار بالطاعة والصدقة.

ويقال: وقاك الله شر فلان وقاية. وفى التنـزيل العزيز: ﴿ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾ [الرعد: ٣٤]، أى: دافع. والتوقية: الكلاءة والحفظ. وقد توقيت واتقيت الشيء: حذرته. والاسم: التقوى.

---

(1) الراغب الأصبهانى «المفردات في غريب القرآن»، نشر مكتبة الأنجلو المصرية، مادة (وقى)، (ص٨٣٣).

هو أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل المعروف بالراغب الأصبهانى أديب، لغوى، حكيم، مفسر، له تصانيف كثيرة منها تحقيق البيان في تأويل القرآن وتوفى – رحمه الله – عام ٥٠٢هـ. انظر حاجى خليفة «كشف الظنون»، (ص١٧٧٣).

(2) ابن منظور «لسان العرب»، تحقيق عبد الله على الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلى، ط. دار المعارف، القاهرة، مادة (وقى).

وابن منظور هو محمد بن مكرم بن على، ولد بمصر عام ٦٣٠هـ، أديب، لغوى، ناظم مشارك في علوم، توفى بمصر عام ٧١١هـ، من مؤلفاته «لسان العرب». انظر ابن حجر «الدرر الكامنة»، (٤/ ٢٦٢-٢٦٤).

التاء بدل الواو، والواو من الياء، وفى التنـزيل: ﴿ وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾ [محمد: ١٧]، أى: جزاء تقواهم، وقيل: معناه ألهمهم تقواهم.

والتقيُّ: المتقى. ورجل تقىّ من قوم أتقياء وتُقَواء، والأخيرة نادرة. قال أبو بكر: معناه موقّ نفسه من العذاب والمعاصى بالعمل الصالح.

قال النحويون: الأصل وَقوىٌ. فأبدلوا من الواو الأولى تاء كما قالوا متزر، والأصل موتزر، وأبدلوا من الواو الثانية ياء وأدغموها في الياء التي بعدها وكسروا القاف لتصبح الياء. قال أبوبكر: والاختيار عندى في تقى أنه من الفعل فعيل، فأدغموا الياء الأولى في الثانية، الدليل على ذلك جمعهم إياه أتقياء، كما قالوا ولى وأولياء، وذلك أقرب لعدم ارتكاب الحذف والقلب.

المطلب الثانى
ترتيب المادة إحصائياً

رتبت مادة التقوى إحصائياً على ترتيب «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم»، وذلك للاستعانة بها في فصول البحث، مع التعليق على كل مادة من هذه المواد بما يناسبها، وذكر المكى والمدنى للاستفادة منها في فهم مواضعها وسياقها، وقد اختصرت الإحصاء لمجيء الآيات في موضعها:

أولاً: لفظة التقوى:

وهى محل البحث وردت خمس عشرة مرة، وقد ازدحمت بالصور البيانية على ما سنوضح بعد ذلك - إن شاء الله تعالى.

وهذه أمثلة لتلك المواضع:

١. ﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧].

٢. ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦].

٣. ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [الحجرات: ٣].

ثانياً: الأمر بالتقوى:

جاء الأمر بالتقوى في خمسةٍ وثمانين موضعاً، منها تسعة وستون موضعاً بلفظ ﴿ ٱتَّقُواْ ﴾، أى الأمر لجماعة المخاطبين، وواحدة بالفاء ﴿ فَلْيَتَّقُواْ ﴾، وثلاثة مواضع للمفرد المخاطب بقول ﴿ ٱتَّقِ﴾، واثنان أيضاً للمفرد المخاطب ولكن بلام الأمر ﴿ وَلْيَتَّقِ﴾، وخمسة مواضع بضمير المتكلم ﴿ ٱتَّقُونِ ﴾، وأربعة مواضع بضمير الغائب ﴿ ٱتَّقُوهُ ﴾، وواحدة لا غير لجماعة الإناث ﴿ ٱتَّقِينَ ﴾.

وأما معمول التقوى، فهو إما لفظ الجلالة «الله»، وإما لفظ الرب، أى اتقوا ربكم. ويلاحظ أن لفظ «ربكم» يأتى في أمر الناس بالتقوى، أى أن المخاطبين به هم عموم الناس. وقد يأت الاثنان معا: «الله ربكم» أو: «ربه». ومن هذه المواضع:

١. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ ﴾ [الأحزاب: ١].

٢. ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [الروم: ٣١].

٣. ﴿ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ ﴾ [النحل: ٢].

٤. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الأحزاب: ٧٠].

٥. ﴿ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ ﴾ [الأحزاب: ٥٥].

وأخيرة – وهى وحيدة – بغير إضافة، وذلك في قوله تعالى:

﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ [الأنعام: ١٥٥].

وفى دعوة الرسل أقوامهم لتوحيد الله جاء بعد الأمر بالتقوى والطاعة – اتقوا الله وأطيعون – توضيح لبعض صفات الله التي تستوجب أن يؤمنوا عند سماعهم وهى لا تليق بغيره – سبحانه – فكيف يعبد سواه، مثل:

١. ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [الشعراء: ١٣٢].

٢. ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ ﴾ [الشعراء: ١٨٤].

٣. ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [يس: ٤٥].

٤. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ [النساء: ١].

٥. ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ

حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

وقد وجاءت معمولات أخرى للتقوى، وهي:

أولاً: النار:

﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ [البقرة: ٢٤].

ثانياً: اليوم الآخر:

﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَـٰعَةٌ ﴾ [البقرة: ٤٨].

ثالثاً: السيئات:

﴿ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [غافر: ٩].

رابعاً: الفتنة:

﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنفال: ٢٥].

ثالثاً: الأمر بالتقوى بين الأمر والنهي:

بمعنى أن الأمر بالتقوى قد يأتي معطوفاً على أمرٍ أمر الشارع به، أو نهي نهى عنه الشارع، أو يأمر بالتقوى ثم يعطف عليه الأمر أو النهي، أو يأتي أمر ونهي ويعطف عليه الأمر بالتقوى، ولكل ذلك معانٍ تناسبه، وقد يأتي بغير ذلك. ونذكر من هذه الآيات:

أ. أن يكون الأمر بالتقوى معطوفاً على أمر، أو العكس: ﴿ فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَـٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

ب. الأمر بالتقوى بين الأمر والنهي، أو: معطوف على كليهما:

١. ﴿فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾ [البقرة: ٢٨٢].

٢. ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾ [المائدة: ٢].

٣. ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَـٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَـٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَـٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾﴾ [المجادلة: ٩].

وسوف يتم دراسة ما يتعلق بخواتيم هذه الآيات ومناسبتها للسياق إن شاء الله تعالى.

رابعاً: الفعل الماضي «اتَّقَوْا»:

ورد هذا الفعل في تسعة عشر موضعاً؛ المكى منها ثمانية مواضع، منها:

١. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف: ٢٠١].

٢. ﴿وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ١٠٩].

وأما المدنى فهو أحد عشر موضعاً، منها:

١. ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾ [آل عمران: ١٥].

٢. ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾﴾ [آل عمران: ١٧٢].

ويلاحظ في التعبير بالماضى «اتقوا» سواء في المكى أو المدنى:

١. ذكر جزاء التقوى ويغلب في الآيات ذكر الجزاء الأخروى، سواء في ذكر

النجاة من النار أو من الوعد بالجنة ووصفها، أو بذكر الدار الآخرة وأنها دار المتقين، أو بذكر الثواب..، والتوسع في ذكر ذلك وغيره.

٢. وكأن المناسبة بين ذكر التقوى بلفظ الماضي وذكر عاقبتها وأجرها أنه لما فرغ من التقوى وأتمها كان المتوقع ذكر الجزاء.

٣. وذكر الماضي أراد تحقق الوقوع كأنه قد حدث.

٤. استخدام لو في المكى مرة واحدة لعموم الناس، وفى المدنى مرتين لأهل الكتاب فقط، ومناسبة ذلك.

٥. التركيز على الجزاء الأخروى في المكى كأنه:

أ. تركيز على الإيمان باليوم الآخر وهو أحد قواعد التوحيد.

ب. الحمل على الإيمان بذكر الجنة والنار فكان مناسباً للدعوة في بدايتها.

ج. أن الرسول ﷺ لم يكن يملك لهم في مكة ما يعدهم به من أمور الدنيا، أى حتى يكون الإيمان بالله وحده طلباً لثوابه لا للعاجل الفانى.

٦. المقارنة بين أهل التقوى والكفار صورة وعاقبة وذلك تقريباً في كل الآيات المكية، مثل: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ ﴾، و﴿ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾، و﴿ تِلۡكَ عُقۡبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۚ وَّعُقۡبَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾.

خامساً: الفعل المضارع «تتقوا»:

ورد أحد عشرة مرة الغالب فيها استخدام الجملة الشرطية. وكلها مدنية إلا آية الأعراف مكية، وهى في قصص الأنبياء. وغالبها في الإيمان والعمل الصالح المناسب للعهد المدنى. وكذلك يتميز أسلوب الشرط بحصول الجواب أو النتيجة إذا وقع الشرط، مما يتميز معه عاقبة التقوى عند وقوع شروطها، فكان كالحث عليها لتحصيل هذه العاقبة العظيمة.

المكى: آية واحدة: ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝٦٣ ﴾ [الأعراف: ٦٣].

أما المدنى، فمما ورد فيه: منها الشرطى، مثل:

١. ﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ۝١٢٠ ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

٢. ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢٩ ﴾ [الأنفال: ٢٩].

٣. ﴿ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ۝٣٦ ﴾ [محمد: ٣٦].

ويبقى موضع ليس من الشرط، وهو: ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَـٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٢٢٤ ﴾ [البقرة: ٢٢٤].

وقد عطف فيها بين البر والتقوى الإصلاح، ولكلٍ معنى، كما سيأتى - إن شاء الله.

سادساً: الفعل المضارع «تتقون»:

ورد في تسعة عشر موضعاً، منها أربعة عشر موضعاً مكياً، والباقى مدنى. والملاحظ في المدنى الترجى ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾، وعلى خلاف الأفعال السابقة من جعل التقوى سبباً لحسن العاقبة في هذه المواضع جعل التقوى هى العاقبة والنتيجة للأعمال الصالحة. وكذلك ارتباط التقوى بالأعمال الصالحة التي فرضت في العهد المدني؛ عهد التشريع. بل أجمل ذلك في أن العبادة سبب التقوى أو يرجى بها.

وأما الآيات المدنية، فمما جاء فيها: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [البقرة: ٢١].

وأما المواضع المكية التنـزيل، فيلاحظ عليها:

أولاً: أن التقوى هى دعوة الرسل وأنها مطلوبة بقوله تعالى: (ألا تتقون)، إذ بداية دعوة الرسل هى لتوحيد الله، ومن ثم وجدنا الرسل جميعاً متفقين على دعوة الناس إليها، إما بمعنى الإيمان، وإما بمعنى الخشية. لذلك لاحظنا أيضاً التكرار.

ثانياً: يلاحظ أن التقوى كذلك طلبت بعد تقرير أدلة التوحيد التي كان يسوقها الرسل لأقوامهم برهاناً على انفراد الرب بالخلق والرزق، مما يستوجب انفراده بالتوحيد والعبادة.

من هذه الآيات:

١. ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودًاۗ قَالَ يَـٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَـٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأعراف: ٦٥].

٢. ﴿ قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَـٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَىَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [يونس: ٣١].

٣. ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَـٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَـٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [المؤمنون: ٢٣].

٤. ﴿ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [المؤمنون: ٨٦، ٧٨].

٥. ﴿ وَإِنَّ إِلۡيَاسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [الصافات: ١٢٣، ١٢٤].

٦. ﴿ فَكَيۡفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرۡتُمۡ يَوۡمًا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا ﴾ [المزمل: ١٧].

سابعاً: الفعل المضارع «يتقون»:

ذكر ثماني عشرة مرة جمعت كثيراً من أمور التقوى ومطلوباتها السابقة، من أن أولياء الله الذين آمنوا وكانوا يتقون، وأن الموعظة والذكرى لهم، وكذلك النجاة في الآخرة، وأن الدار الآخرة لهم كذلك، ورحمة الله يكتبها لهم، وأن آياته الكونية لقوم يتقون، وأن آيات الله يبينها رجاء التقوى، وكذلك أنزل قرآنه سبحانه وتعالى لذلك. والمكي فيها ثلاثة عشر موضعاً، والمدني خمسة مواضع.

من المدني: ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [الأعراف: ١٦٤].

وأما المواضع المكية، فمنها:

١. ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأنعام: ٣٢].

٢. ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [الأنعام: ٥١].

٣. ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣].

ثامناً: الفعل «يتق» المجزوم:

ورد في ستة مواضع؛ أربعة مواضع منها شرطية لبيان عاقبة التقوى، واثنان في الأمر المفرد بالتقوى، ولكلٍ معنى في السياق. والمدني منها خمسة مواضع، والمكي موضع واحد مقرون بالصبر المناسب للدعوة في العهد المكي، علاوة على كونه في قصة يوسف، والقصص القرآني أحد أهدافه تثبيت أهل الإيمان بحكاية ما حدث للرسل مع أقوامهم السابقين وصبرهم على ذلك. والموضع المكي هو: ﴿ قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا يُوسُفُ

وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [يوسف: ٩٠].

وأما المدني فمنه: ﴿ فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٍ مِّنكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ﴾ [الطلاق: ٢].

فجمع للمتقى في جواب الشرط الرزق والمخرج واليسر، وثَمَّ فارق بين أن يجعل له مخرجاً وبين أن يجعل له من أمره يسراً، وجمع له كذلك تكفير السيئات وإعظام الثواب.

تاسعاً: بقية مشتقات التقوى:

١. الفعل «يتقـه»:

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴾ [النور: ٥٢].

٢. الفعل «يتقـى»:

﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجۡهِهِۦ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الزمر: ٢٤].

٣. «الأتقى»:

لم تأت صيغة أفعل هذه إلا مرة واحدة، وكأنها لا تحتمل أكثر من ذلك، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾ [الليل: ١٧، ٢١].

٤. «أتقاكم»:

وكذلك «أتقاكم» في خطاب المؤمنين ذكرت مرة واحدة، في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ۝١٣ ﴾ [الحجرات: ١٣].

٥. «واق»:

وهذه اللفظة وردت ثلاث مرات، كلها متعلقة بالله تعالى، ولها معانٍ، منها: ﴿ لَّهُمْ عَذَابٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ۝٣٤ ﴾ [الرعد: ٣٤].

والمعنى أن ليس لأحد واق من الله، لا الأنبياء ولا الأقوياء ولا غيرهم، إذا اتبعوا أهواءهم وخالفوا أمر ربهم.

٦. «تقياً»:

وردت ثلاث مرات؛ اثنان في سورة مريم، في قصة يحيى وعيسى، والثالثة عامة في ثواب التقوى، وهي:

١. ﴿ قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ۝١٨ ﴾ [مريم: ١٨].
٢. ﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ۝١٣ ﴾ [مريم: ١٣].
٣. ﴿ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴾ [مريم: ٦٣].

٧. «تقاة»:

تقاة بمعنى تقية، وردت مرة واحدة في حكم خاص بها، وذلك في قوله تعالى: ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٢٨ ﴾ [آل عمران: ٢٨].

٨. «تقاته»:

ذكرت مرة واحدة كذلك: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ

وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

٩. الفعل «يوق»:

المبنى للمجهول، ورد مرتان في وقاية النفس من الشح، ولم يأت إلا في الشح والبخل، ومبنياً للمجهول، ومدنياً، ومنها:

﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحشر: ٩].

١٠. الفعل «اتقى»:

جاء مذكوراً في سبعة مواضع، وجاء بالإفراد ليبين مسئولية كل فرد عن عمل نفسه، وليبين أن التقوى محلها القلب أو بالأصح أن الله هو العالم بمن اتقى، علم ذلك إليه، وأن التقوى هى البر، وأنه ييسر أصحاب التقوى للحسنى في الدنيا والآخرة، وأنهم لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون.. إلى آخره. واثنان منهم مكيان، والخمسة مدنية.

المكى:

١. ﴿ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِى ۙ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٥].

٢. ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ [الليل: ٥-٧].

ومن المدنى: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ ﴾ [البقرة: ١٨٩].

١١. «تقواها»:

﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ ﴾ [الشمس: ٨].

تبين رحمة الله ﷻ وقطع العذر، ومعنى المقابلة بين الفجور والتقوى.

١٢. «تقواهم»:

جاءت مرة واحدة تبين أن التقوى نفسها جزاء الهداية: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾ [محمد: ١٧].

١٣. «المتقون»:

جاءت ست مرات فقط، وهي إما بياناً لصفاتهم، أو وصفاً للجنة التي وعدوا بها وذكراً لها. وقد جاء ثلاثٌ منها مكية، وثلاثٌ مدنية.

المكي:

١. ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الأنفال: ٣٤].

٢. ﴿ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ ﴾ [الفرقان: ١٥].

٣. ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الزمر: ٣٣].

أما المدني، فمنه:

١. ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ

أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ١٧٧﴾ [البقرة: ١٧٧].

٢. ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَاۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴾ [الرعد: ٣٥].

١٤. «المتقين»:

وردت في ثلاثة وأربعين موضعاً، منها ستة وعشرون موضعاً في التنـزيل المكى جاءت لتطالبهم بالصبر، وتبين لهم أن العاقبة للمتقين، ثم ذكر الجنة والنار للحث على الإيمان والتوحيد، وكذلك التقابل بين فريقى، المتقين والفجار، وجزاء كلٍّ وعاقبته، وذكر الأمم السابقة وما آلت إليه أحوالهم بالإيمان أو بعدمه.

أما المدنى: وهى سبعة عشر موضعاً فتبدأ بإيضاح وتقرير أن الكتاب هدى للمتقين، ويبين صفاتهم، وأن البيان والموعظة للمتقين، كأنه كالحث لهم على التزام صفات التقوى. وهى مناسبة للأوامر والنواهى في العهد المدنى. ثم بين لهم ما يجمع ذلك كله فإن الله لا يقبل هذه الأعمال إلا من المتقين، مع الحض على ذلك بكونه مع المتقين، وأنه يحبهم – سبحانه. ومن مواضع المدنى:

﴿ الٓمٓ ١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ لَا رَيْبَۛ فِيهِۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ١-٢].

وأما المكى، فمنه:

١. ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْۚ قَالُواْ خَيْرًاۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌۚ وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [النحل: ٣٠].

٢. ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴾ [مريم: ٩٧].

٣. ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٨].

المطلب الثالث
التقوى في كلام أهل الشرع

وإذ قد عرفنا مادة التقوى في كلام أهل اللغة وذكرنا إحصائها، فلا بد من معرفة معناها في لسان أهل الشرع، ليكتمل المعنى ويتضح المقصود، إذ على معرفة معناها في عرف الشرع يتوقف معرفة ما ينبنى على ذلك من معرفة الله تعالى، والخوف منه والخشية له، وما يتبع ذلك من ثواب وعقاب. فنبدأ بكلام الفخر الرازى –رحمه الله تعالى، لأنه لخص كلام من سبقه وفصّل بعض التفصيل، حيث يقول عند تفسيره لقول الله تعالى ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]:

«المسألة الثانية: المتقى في اللغة: اسم فاعل من قولهم وقاه فاتقى. والوقاية فرط الصيانـة، إذا عرفت هذا فنقول إن الله تعالى ذكر المتقى هاهنا في معرض المدح، ومن يكون كذلك أولى أن يكون متقياً في أمور الدنيا، بل بأن يكون متقياً فيما يتصل بالدين، وذلك بان يكون آتياً بالعبادات محترزا عن المحظورات».[١]

وهو كلام كثير من المفسرين، فكانت التقوى عند الإمام الرازى هى الإتيان بالعبادات وترك المحظورات ولا يكون المرء تقياً إلا بذلك ولكنه – رحمه الله – أورد سؤالاً مهما مفاده: هل يستحق المرء اسم التقوى إذا لم يتق الصغائر؟ يقول – رحمه الله تعالى: «واختلفوا في أنه هل يدخل اجتناب الصغائر في التقوى؟ فقال بعضهم: يدخل كما يدخل الصغائر في الوعيد، وقال آخرون: لا يدخل، ولا نزاع في وجوب التوبة من الكل، إنما النـزاع في أنه: إذا لم يتوق الصغائر هل يستحق ذلك الاسم ؟»، وكأنه – رحمه الله – اختار عدم استحقاقه لهذا الاسم، إذ أورد من الأدلة ما يؤيد ذلك ويقويه وإن لم يصرح فقال: «فروى عنه ﷺ أنه

---

(١) الإمام فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الرازى «مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير»، ط. دار الغد العربى، القاهرة، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، (١/ ٣٨١-٣٨٢).

قال: «لا يبلغ العبد درجة المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذرا مما به بأس».(١) وعن ابن عباس - رضى الله عنهما: «أنهم الذين يحذرون من الله العقوبة في ترك ما يميل الهوى إليه ويرجون رحمته بالتصديق بما جاء منه».(٢) وبإيراده الحديث، وهو أن العبد لا يبلغ درجة المتقين حتى يدع ما لا بأس به فمن باب الأولى لا يكون تقياً بارتكاب الصغائر فإنها وإن سميت كذلك فهى حرام وإن لم ترق إلى الكبائر.

ومن ثم يقع اسم المتقى عند الرازى على من ترك المحظورات وأتى بالعبادات واجتنب الصغائر، ولكن هل يشترط في التقوى تَرْكُ ما لا بأس به، أى لا حرج فيه ولا إثم، كما أشار إليه غيره من أهل العلم؟ فالظاهر أن استدلاله بالحديث المذكور يشير ضمناً إلى ذلك حيث عقب بعد ذلك - رحمه الله - فذكر جوهر التقوى ومعناها، فقال: «واعلم أن التقوى هى الخشية قال في أول سورة النساء: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ﴾ [النساء: ١]. ومثله في أول سورة الحج، وفى الشعراء: ﴿ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الشعراء: ١٠٦]. ولا فرق في الخشية بين الصغائر والكبائر».(٣)

ثم وصل بنا إلى الغرض الأصلى منها، وهو خمسة أمور، فقال(٤) - رحمه الله: «واعلم أن حقيقة التقوى وإن كانت هى التي ذكرناها، إلا أنها قد جاءت في القرآن، والغرض الأصلى منها الإيمان تارة، والتوبة تارة أخرى، والطاعة

---

(١) الحديث أخرجه العراقى في أحاديث الإحياء (١/ ٣٣)، كتاب الشعب، وقال رواه الترمذى وحسنه وابن ماجه والحاكم وصححه من حديث عطية السعدى.

(٢) الفخر الرازى «التفسير الكبير»، (١/ ٣٨٢).

(٣) الفخر الرازى «التفسير الكبير»، (١/ ٣٨٢).

(٤) المصدر السابق، (١/ ٣٨٢).

ثالثة، وترك المعصية رابعاً، والإخلاص خامساً.

أما الإيمان فقوله تعالى: ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ [الفتح: ٢٦]، أي: التوحيد، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [الحجرات: ٣]، وفى الشعراء: ﴿ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [الشعراء: ١١].

وأما التوبة فقوله: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ ﴾ [الأعراف: ٩٦]، أي: تابوا.

وأما الطاعة: فقوله تعالى في سورة النحل: ﴿ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾ [النحل: ٢]، وفيه أيضا: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴾ [النحل: ٥٢]، وفى المؤمنين: ﴿ وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴾ [المؤمنون: ٥٢].

وأما ترك المعصية: فقوله تعالى: ﴿ وَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ [البقرة: ١٨٩]، أي: فلا تعصوه.

وأما الإخلاص: فقوله في سورة الحج: ﴿ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ [الحج: ٣٢]، أي: من إخلاص القلوب، فكذا قول الله تعالى: ﴿ وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴾ [البقرة: ٤١].

وهذه الأغراض بهذا التفصيل ستكون عوناً - إن شاء الله تعالى - فيما يأتى، ونبراساً نستضيء به في تنزيل ألفاظ التقوى الواردة على حسب تلك المعانى، بحيث يظهر المراد منها بحسب السياق وغيره من الأدلة.

ويختم الإمام الرازى كلامه في التقوى بذكر أهميتها وعظم مكانتها وشرف أهلها وعلو منزلتهم، فيقول: «واعلم أن التقوى مقام شريف، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [النحل: ١٢٨]، وقال: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣]، وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله..»».

وينهى الإمام هذا الختام قائلاً: «ولو لم يكن للمتقى فضيلة إلا ما في قول الله

تعالى: ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ٢] كفاه، لأنه تعالى بين أن القران هدى للناس في قوله تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ثم قال ها هنا في القرآن إنه ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ٢]، فهذا يدل على أن المتقين هم كل الناس، فمن لا يكون متقيا كأنه ليس بإنسان».[١]

ونواصل النظر في كلام أهل العلم، لنستكمل تعريف التقوى، حيث نصل إلى شرح الحافظ ابن رجب الحنبلي لحديث: «اتق الله حيثما كنت» من كتابه «جامع العلوم والحكم»[٢]، حيث هو أجمع من رأيت شرحاً لمعنى التقوى في شرحه للحديث، ونعيد ترتيب كلامه ليتفق مع الترتيب العام للكلام على تعريف التقوى، يقول - رحمه الله - ما مختصره: «وأصل التقوى أن يجعل العبد بينه وبين ما يخافه ويحذره وقاية تقيه منه، إلى أن يقول متدرجاً في الكلام على التقوى: وقد يغلب استعمال التقوى على اجتناب المحرمات، كما قال أبو هريرة[3] ﷺ لما سئل عن التقوى، فقال: هل أخذت طريقاً ذا شوك؟ قال: نعم،

---

(١) الفخر الرازى «التفسير الكبير»، (١/ ٣٨٢).

(٢) الحافظ ابن رجب الحنبلى «جامع العلوم والحكم»، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، تحقيق شعيب الأرناؤوط وإبراهيم باجس، (١/ ٣٩٥) وما بعدها.

والحافظ ابن رجب هو عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الشهير بابن رجب الحنبلى، محدث حافظ فقيه أصولى مؤرخ، ولد ببغداد عام ٧٣٦هـ، ومؤلفاته ٣٣ جزءاً ورسالة منها «جامع العلوم والحكم»، وتوفى عام ٧٩٥هـ. انظر ابن حجر العسقلانى «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة»، (٢/ ٣٢١-٣٢٢).

(٣) هو عبد الرحمن بن صخر الدوسى أسلم عام ٧هـ، كان من حفاظ الصحابة روى عن الإمامين أبا بكر وعمر، وأبى بن كعب، والفضل بن العباس، وكثير من غيرهم، شهد مع النبى ﷺ خيبر وما بعدها، توفى - رحمه الله - عام ٥٩هـ، انظر الحافظ بن كثير «البداية والنهاية»، (٨/ ١٠٣).

فقال: فكيف صنعت؟ قال: إذا رأيت الشوك عزلت عنه أو جاوزته أو قصرت عنه، قال: ذاك التقوى». وأخذ هذا المعنى ابن المعتز[١] فقال:

خلِّ الذنوب صغيرها وكبيرها فهو التُّقَى
واصنع كماشٍ فوق أرض من الشوك يحذر ما يرى
لا تحقرن صغيرة إن الجبال من الحصى

فكان أول ما أشار إليه ابن رجب - رحمه الله - من معانى التقوى حسب ترتيبنا لكلامه هو اجتناب المحرمات، ثم يزيد عليه بعد ذلك بمثل ما ذهب إليه الإمام الفخر فى بداية تعريفه للتقوى، فيقول - رحمه الله تعالى: «فتقوى العبد لربه أن يجعل بينه وبين ما يخشاه من ربه من غضبه وسخطه وعقابه وقاية تقيه من ذلك، وهو فعل طاعته واجتناب معاصيه».

ثم يرتفع بمعنى التقوى منـزلة أخرى فيقول: «ويدخل في التقوى الكاملة فعل الواجبات وترك المحرمات والشبهات»[٢]، وهو في هذه المنـزلة يفيدنا معنى جديداً تشتمل عليه التقوى، وهو زائد على اختيار الفخر الرازى، وهو ترك الشبهات، فلا تكمل تقوى العبد - على كلام الحافظ ابن رجب - إلا بترك الشبهات، وهو حق، إذ حديث النبى ﷺ يشير إلى هذا المعنى، وهو قوله: «فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام»[٣]، وإن كان الرازى أدخل في التقوى ترك ما لا بأس به، وهو ترك بعض

---

(١) هو عبد الله بن المعتز بالله محمد بن المتوكل الخليفة العباسى، أديب، شاعر من آثاره ديوان شعر، ت٢٩٦هـ.

(٢) ابن رجب الحنبلى «جامع العلوم والحكم»، (١/ ٣٩٥).

(٣) رواه البخارى (٥٢)، و(٢٠٥١). وانظر أحمد بن على بن حجر العسقلانى «فتح البارى بشرح صحيح الإمام محمد بن إسماعيل البخارى»، تصحيح وتحقيق عبد العزيز بن باز،

المباحات، وهو أعلى من ترك الشبهات، لكن الشبهات باب آخر.

والمتقون تركوا ما لا بأس به حذراً مما به بأس، فلم يقعوا في الشبهات ابتداءً، وإنما تركوا أبواباً من الحلال خشية الوقوع في الحرام.

ونظراً لأن القرآن الكريم قد ذكر للمتقين صفات أعلى من التعريف السابق ، فلم ينس الحافظ ابن رجب أن ينوه بها مستدلاً ببعض تلك الآيات التي لا مفر من ذكرها، لتكتمل بها صورة التقوى، فيقول[1]: «وربما دخل فيها - أي التقوى الكاملة - فعل المندوبات وترك المكروهات، وهو أعلى درجات المتقين، قال تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ ﴾ [البقرة: ١-٤].

وقال تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧].

ثم يؤيد ما ذهب إليه ببعض أقوال الصحابة ﷺ فيقول - رحمه الله: «وعن أبى الدرداء[2] ﷺ قال: تمام التقوى أن يتقى اللهَ العبدُ حتى يتقيه من مثقال ذرة،

=

المكتبة السلفية القاهرة، (١/ ١٢٦)، (٤/ ٢٩٠). ورواه مسلم (١٥٩٩)، وانظر يحيى بن شرف النووى «المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج»، حققه وفهرسه عصام الصبابطى وآخرون، دار الحديث، القاهرة، (٦/ ٣١).

(١) ابن رجب الحنبلى «جامع العلوم والحكم»، (١/ ٣٩٩-٤٠٠).

(٢) هو العارف المتفكر، العالم المتذكر، أبو الدرداء صاحب الحكم والعلوم، أسلم عام ٢هـ

حتى يترك بعض ما يرى أنه حلال خشية أن يكون حراماً، يكون حجاباً بينه وبين الحرام، فإن الله قد بين للعباد الذي يصيرهم إليه فقال: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٧-٨]، فلا تحقرن شيئاً من الخير أن تفعله ولا شيئاً من الشر أن تتقيه».[١]

وبعد أن قطعنا هذا الشوط الطويل مع الحافظ ابن رجب في تبين ملامح التقوى وصل بنا - رحمه الله تعالى - إلى أصل التقوى، فقال: «وأصل التقوى أن يعلم العبد ما يتقى ثم يتقى»، وذكر معروف الكرخى عن بكر بن خنيس، قال: «كيف يكون متقيا من لا يدرى ما يتقى؟».

قال معروف الكرخى[٢]: إذا كنت لا تحسن تتقى أكلت الربا، وإذا كنت لا تحسن تتقى لقيتك امرأة ولا تغض بصرك، وإذا كنت لا تحسن تتقى وضعت سيفك على عاتقك وقد قال النبى ﷺ لمحمد بن مسلمة[3]: «إذا رأيت أمتى قد اختلفت فاعمد إلى سيفك فاضرب به أُحُدَاً».[٤]

=

على يد عبد الرحمن بن عوف، وتوفى بدمشق بعد أن ولاه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عليها. انظر أبا النعيم الأصبهانى «حلية الأولياء»، (١/ ٢٨٨).

(١) ابن رجب الحنبلى «جامع العلوم والحكم»، (١/ ٤٠٠).

(٢) علم الزهاد، بركة العصر، أبو محفوظ البغدادى، واسم أبيه فيروز، وقيل فيرزان، من الصابئة، توفى سنة مئتين، انظر الإمام الذهبى «سير أعلام النبلاء»، تحقيق شعيب الأرناؤوط وغيره، طبعة أولى، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٢هـ، ١٩٨٢م، (٩/ ٣٣٩).

(٣) هو محمد بن مسلمة بن خالد بن عدى الأنصارى الأوسى، شهد بدراً وأحداً والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ إلا تبوك ومات بالمدينة عام ٤٦. انظر ابن الأثير الجزرى «أسد الغابة في معرفة الصحابة»، (٥/ ٢١٢).

(٤) ابن رجب الحنبلى «جامع العلوم والحكم»، (١/ ٤٠٢). و«أُحُد» الجبل المشهور بالمدينة المنورة، وقَصْدُهُ ﷺ ألا يشارك في الفتن.

ومازال حبل الحديث متصلاً في معنى التقوى وحقيقتها، حتى نصل إلى صاحب رسالة «الغاية القصوى في الكلام على آية التقوى»[١] العلامة الفاكهانى، حيث هو من قد علمت الذي أفرد آية التقوى برسالة وكان دقيقاً في اختياره لمعنى التقوى من بين ما عرض لها من معانى وحقائق، فنذكر حاصل كلامه وما زاد به عن غيره ممن سبق أو ممن عارضه، ثم الترجيح بين ذلك كله لاختيار الأقرب إلى الأدلة والأولى بالمتابعة، وحتى نستقصى في البحث ما ورد فيه.

يقول - رحمه الله تعالى:

«الطرف الأول في حقيقة التقوى جملة وتفصيلاً. أما جملةً: فهى عبارة عن امتثال المأمورات واجتناب المنهيات. قال الغزالى[٢] - رحمه الله تعالى: التقوى في قول شيوخنا: تبرئة القلب عن ذنبٍ لم يسبق عنك مثله، حتى يحصل للعبد من قوة العزم على تركه وقاية بينه وبين المعاصى.

---

(١) العلامة تاج الدين عمر بن على اللخمى المعروف بالفاكهانى «الغاية القصوى في الكلام على آية التقوى»، تحقيق وتعليق محمد يحيى بيدق، الطبعة الأولى، مؤسسة الريان، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، (ص٢٩).

والعلامة الفاكهانى ولد بالاسكندرية سنة ٦٥٤هـ، يقول عنه ابن فرحون في «الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب»، (ص١٨٦-١٨٧): قرأ القرآن بالقراءات، وكان فقيهاً فاضلاً متفنناً في الحديث والفقه والأصول والعربية والأدب، على حظ وافرٍ من الدين المتين، والصلاح العظيم، واتباع السلف الصالح، وحسن الخلق، وله شعرٌ حسن، توفى -رحمه الله- عام ٧٣٤هـ. وانظر ابن كثير «البداية والنهاية»، (١٤/ ١٦٨).

(٢) الإمام حجة الإسلام محمد بن محمد محمد الغزالى الطوسى، ولد ٤٥٠هـ، فقيه متكلم أصولى حكيم، له مؤلفات كثيرة أشهرها: إحياء علوم الدين، توفى ٥٠٥هـ. انظر ابن السبكى «طبقات الشافعية»، (٤/ ١٠١).

وأما تفصيلاً: فاعلم أن التقوى في القرآن الكريم تنطلق على ثلاثة أشياء:

أحدها: بمعنى الخشية والهيبة، قال تعالى: ﴿ وَإِيَّـٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴾ [البقرة: ٤١]، وقال – سبحانه وتعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٨١].

والثاني: بمعنى الطاعة والعبادة، قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، قال ابن عباس ﷺ : أطيعوا الله حق طاعته. قال مجاهد: هو أن يطاع فلا يعصى، وأن يشكر فلا يكفر.

الثالث: بمعنى تبرئة القلب عن الذنوب، وهذه هي الحقيقة في التقوى كما تقدم دون الأولين، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ۝٥٢ ﴾ [النور: ٥٢]، ذكر الطاعة والخشية ثم ذكر التقوى، فعلمت بهذا أن حقيقة التقوى معنى غير الطاعة والخشية، وهي: تبرئة القلب عما ذكرنا».[1]

وبتأمل ما قاله – رحمه الله تعالى – من ذكر التقوى جملةً، لم نره خرج على كلام أهل العلم. وأما تفصيلاً، فما ذكره من أن الأول والثاني مما يطلق على التقوى فكذلك هو قول أهل العلم، وإن استدل على الأولى وهي الخشية بقوله تعالى: ﴿ وَإِيَّـٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴾ [البقرة: ٤١]، حيث استدل بها الإمام الرازي على التقوى بمعنى الإخلاص كما سبق، والتدقيق أن الآية محتملة، فلا يظهر خلاف – إن شاء الله تعالى.

وأمّا الثالث فالنظر فيه من وجوه، وهو الذي ذكره في تعريف التقوى، وإن كان قد نقله عن الإمام الغزالي، لكنه اختاره وأقام الدليل عليه من الآية الكريمة: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ۝٥٢ ﴾ [النور: ٥٢]:

---

(١) الفاكهاني «الغاية القصوى»، تحقيق يحيى بيدق، (ص٢٩).

الوجه الأول: أنه ذكر في حقيقة التقوى تفصيلاً أنها على ثلاث أشياء في القرآن الكريم ثم قال في الثالث إنه هو حقيقة التقوى دون الأولين، فكيف تطلق على ثلاثة أشياء في القرآن، ثم يقول والثالث هو الحقيقة دون الأولين؟ فكان الأولى أن يذكر أن ذلك اختياره أو ما ارتضاه، وأنه الذي سيبنى عليه شرحه، خاصة وأن الأولين لم يُقدح في دليلهما، وأنهما من معانى التقوى التي لا غبار عليها.

الثاني: هو احتجاجه بالآية الكريمة على أن العطف يقتضى المغايرة بين الطاعة والخشية والتقوى. والرد أن التغاير ليس لازماً للعطف فقد يعطف الشيء على مرادفه للتأكيد مثلاً كقول الشاعر:

فألفى قولها كذباً ومينا

وقد يعطف الخاص على العام والعكس، لفرط الاهتمام بالخاص، أو لغيره من المعانى المستنبطة من السياق، كقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [البقرة: ٩٨]، فعطف جبريل وميكال على الملائكة، وهما قطعاً من الملائكة، وإن ذلك من باب عطف الخاص على العام لخصوصيته، كما في تفسير الآية، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة: ٢]. فالعطف يقتضى التغاير، فماذا نفعل في قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾ [البقرة: ١٨٩]، وله تفصيل يأتى في موضعه – إن شاء الله تعالى – وهو قريب مما سبق التوفيق به.

ومن عطف العام على الخاص قوله تعالى: ﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ [نوح: ٢٨]، فلا مانع إذاً في قوله تعالى في الآية محل الاستشهاد ﴿ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ ﴾ [النور: ٥٢] أن يكون

من باب الترادف أو عطف العام على الخاص لفائدة.[(١)]

ثالثا: قوله: «فعلمت بذلك أن حقيقة التقوى معنى غير الطاعة والخشية وهى: تبرئة القلب عما ذكرنا» ليس بلازم.

وعلى أية حال فقد أفادنا - رحمه الله تعالى - معنى آخر جديداً للتقوى ينضم إلى ما ذكر أهل العلم، وبعد ذلك قسم - رحمه الله تعالى - ما ذكر من معنى التقوى إلى منازل: الأول: تقوى عن الشرك، والثانى: تقوى عن البدعة، والثالث: تقوى عن المعاصى الفرعية.

ويجمعها قول الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٩٣﴾ [المائدة: ٩٣].

ونستكمل رحلتنا مع العلامة الفكهانى في تعريفه لحقيقة التقوى لزاماً علينا، حيث لخص لنا مرة أخرى تعريفه للتقوى، ووضع لها حداً جامعاً على حد تعبيره، فنلخص مقصوده في بعضٍ، ونسوق حروفه في البعض الآخر، ثم نقف بعد ذلك لنقارن ونوازن بين كلامه بعضه بعضاً، وبين كلامه وكلام أهل العلم.

يقول - رحمه الله تعالى - بعد أن ذكر للإمام الغزالى تعريفاً للتقوى، وهو ترك فضول الحلال، وخبر الرسول ﷺ : «إنما سمى المتقون متقين لتركهم ما لابأس به حذرا مما به بأس»[(٢)]:

---

(١) انظر لما سبق جمال الدين بن هشام الأنصارى «مغنى اللبيب»، وبهامشه حاشية الشيخ محمد الأمير، دار إحياء الكتب العربية، (٢/ ٣٢).

(٢) انظر الإمام الفاكهانى «الغاية القصوى في الكلام على آية التقوى»، تحقيق محمد يحيى بيدق، ص٣١ وما بعدها.

«فأحببت أن أجمع بين ما قاله علماؤنا وبين ما في الخبر عن الرسول ﷺ فيكون حداً جامعاً، ومعنى بالغاً، فأقول: التقوى اجتناب ما تخاف منه ضرراً في دينك.[(١)]

ثم الذي يُخَاف منه في أمر الدين قسمان: يخص الحرام والمعصية[(٢)]، وفضول الحلال، لأن الاستعمال لفضول الحلال يخرج صاحبه إلى الحرام ومحض العصيان، وذلك لشره النفس وطغيانها، وتمرد الهوى وعصيانه.

فقد تحصل لك من ذلك أن التقوى على قسمين: فرض ونفل. فالفرض ما تقدم من أنه تبرئة القلب عن شر. والنفل ما نُهي عنه نهى تأديب، وهو فضول الحلال، كالمباحات المأخوذة بالشهوات.

فالأولى فرض يلزم بتركها عذاب النار. والثانية تقوى خير وأدب، يلزم بتركها الحبس والحساب واللوم. فمن أتى بالأولى فهو في الدرجة الأدنى من التقوى، وهى منـزلة مستقيمى الطاعة. ومن أتى بالأخرى فهو في الدرجة العليا من التقوى، وتلك منـزلة مستقيمى المباح. وإذا جمع العبد بينهما على اجتناب كل

---

(١) وانظر كذلك أبا السعود «إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم»، دار الفكر، بيروت (١/ ٣٢). والألوسى «روح المعانى في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني»، دار الفكر، بيروت، طبعة عام ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، (١/ ١٧٩). وانظر القاضى أبا سعيد عبد الله بن عمر بن محمد البيضاوى «أنوار التنزيل وأسرار التأويل (تفسير البيضاوى بحاشية الكازوني)»، تحقيق الشيخ عبد القادر عرفات العشَّا حسَّونة، دار الفكر، بيروت، طبعة عام ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، (٢/ ٩٩-١٠٠).

(٢) قال الألوسى في «روح المعانى»: «فالمراتب متعددة لتعدد مراتب الضرر، فأولها التوقى عن الشرك، والثانية التجنب عن الكبائر، ومنها الإصرار على الصغائر، والثالثة ما أشير إليه بما روى الترمذى عنه ﷺ: «لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع مالا بأس به حذراً مما به بأس»، وفى هذه المرتبة يعتبر ترك الصغائر».

معصية وفضول فقد استكمل معنى التقوى وقام بحقها، وجمع كل خير فيها، وهو الورع الكامل الذي هو ملاك أمر الدين، وذلك منـزلة الأدب على باب الله ﷻ. فهذا معنى التقوى وبيانها في الجملة، فافهمـه موفقاً».[١]

هذا ملخص كلامه الذي يتحصل في أن التقوى فرض ونفل. والفرض هو تجنب ضرر المعصية، والنفل ترك الفضول.

ونلاحظ شيئاً آخر لابد من الإشارة إليه، وهو أن تعريفه للتقوى بترك المعصية والحرام، أو تبرئة القلب عن الذنب وترك الفضول لا يعنى ذلك أن المتقى لا يأتى بالواجبات والمستحبات الشرعية، إذ لا يعقل أن المتقى يتجنب المعاصى والذنوب وهو مقصر في الواجبات الشرعية كترك الصلاة مثلاً أو الصيام أو الصدق أو الأمانة وبر الوالدين وغيرها، إذ ذلك عين المعصية، فكأن مجمل كلامه في نهاية المطاف أن التقوى الإتيان بالواجبات وعدم التفريط فيها، مع بقية ما أشار إليه الرازى.

ومن السابقين المتقدمين ممن تكلموا في التقوى وتعريفها ولزومها: الحارث المحاسبى[2] - رحمه الله. فقد بين لنا حد التقوى، وإن كان على طريقة من ذكرنا من أهل العلم ولكنه ساق ذلك في صيغة الحوار من السؤال والجواب، تعليماً للسائل، وتفهيماً للقارئ والسامع، وتثبيتاً لتلك المعانى في القلوب والأذهان.

يقول - رحمه الله[٣]: «قلت: فما التقوى؟»، قال: «الحذر بالمجانبة لما كره الله

(١) الفاكهانى «الغاية القصوى»، تحقيق يحيى بيدق، (ص٣١).

(٢) الحارث بن أسد المحاسبى نشأ بالبصرة، نزل بغداد، نقل الحديث عن أعلام عصره، ألف المؤلفات في تزكية النفس منها: الرعايا، والوصايا، توفى ٢٤٣هـ. انظر ابن الملقن «طبقات الأولياء»، (ص١٧٥-١٧٧).

(3) المحاسبى «الرعاية لحقوق الله»، تحقيق عبد القادر عطا، الطبعة الثالثة، دار الكتب الحديثة، ص٤٧).

ﻷ »، قلت: «الحذر من ماذا؟»، قال: «الحذر من الله ﻷ »، قلت: «فالحذر من الله في ماذا؟»، قال: «في خصلتين: تضييع واجب حقه، وركوب ما حرم ونهى عنه في السر والعلانية».

فأعاد – رحمه الله – علينا معنى التقوى بالحذر والمجانبة لما كره الله، وهو قريب من كلام الفكهانى والألوسى[1] ومن نحا نحوهم – رحمهم الله جميعاً – وإن عبروا بما يضر في الدين والآخرة، فقد عبر عنه هو بما كره الله ﻷ ، وليس المقصود الكراهة الاصطلاحية، وهى تعبير المتأخرين في الفقه والأصول بما نهى الشارع عنه نهياً غير جازم، لا يأثم فاعله، وإنما لا شك مراده ما هو أعم من ذلك مما يشمل الحرام والمكروه، كما هو تعبير المتقدمين، وكما جاء في حديث الرسول ﷺ : «إن الله كره لكم ثلاثاً: قيل وقال، وكثرة السؤال، وضياع المال»[2]، ومما لاريب فيه أن ذلك يشمل الحرام.

---

(١) هو محمد بن عبد الله الحسينى الألوسى، ولد عام ١٢١٧هـ، مفسر، محدث، فقيه، أديب، لغوى، نحوى، مشارك في بعض العلوم وله بعض مصنفات منها: «روح المعانى في تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى»، وتوفى في عام ١٢٧٠هـ. انظر البغدادى «هدية العارفين»، (٢/ ٤١٨).

(٢) رواه مسلم (١٧١٥). وانظر النووى «شرح صحيح مسلم»، تحقيق الصبابطى وحازم محمد وعماد عامر، (٦/ ٢٥١).

المطلب الرابع
ولكن يناله التقوى منكم

نستفتح بهذا المطلب، وهو مطلب الإخلاص الذي يجب أن نبدأ به، وقد عبر القرآن عنه بقوله: ﴿ وَلَـٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ [الحج: ٣٧].

بعدما أشرنا فيما سبق إلى معنى التقوى لغةً وفي عرف أهل العلم، نحصي أولاً الآيات التي وردت فيها لفظة التقوى ذاتها، لنستوضح منها صورة متكاملة لأهل الإيمان تحمل على التمسك بها، وحمل النفس عليها، ولتتحقق سعادة الفرد والمجتمع، وحتى تعود حضارة هذا الدين حية كما كانت على أسسها المتينة:

﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [التوبة: ١٠٩].

ولقد وردت كلمة التقوى في القرآن خمس عشرة مرة، و هذه هي مواضعها:

أولاها: ﴿ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ ﴾ [البقرة: ١٩٧].

الثانية: ﴿ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

الثالثة: ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة: ٢].

الرابعة: ﴿ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة: ٨].

الخامسة: ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ﴾ [الأعراف: ٢٦].

السادسة: ﴿ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ ﴾ [التوبة: ١٠٨].

السابعة: ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ ﴾ [التوبة: ١٠٩].

الثامنة: ﴿ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [طه: ١٣٢].

التاسعة: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾

[الحج: ٣٢].

العاشرة: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ [الحج: ٣٧].

الحادية عشرة: ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾ [الفتح: ٢٦].

الثانية عشر: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [الحجرات: ٣].

الثالثة عشرة: ﴿ وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [المجادلة: ٩].

الرابعة عشرة: ﴿ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾ [المدثر: ٥٦].

الخامسة عشرة: ﴿ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ ﴾ [العلق: ١١-١٢].

فبالنظر إلى هذه الآيات نراها وضحت على نحو دقيق وتناسق بديع شمول التقوى وصورتها، فرأينا أولاً: أن الله تعالى هو أهل التقوى، وأنه لا يناله إلا التقوى من الناس، وأن الرسول ﷺ إنما أمر بالتقوى، ثم جسد ملامح التقوى بأن لها كلمة هى كلمة التقوى، و لها زياً يعرف به أصحابها هو لباس التقوى، وأن لها مستقراً يفيض على بقية الأعضاء وهو القلب: ﴿ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ [الحج: ٣٢]، ولها زاد يتزوده المرء هو خير زاد، زاد الآخرة: ﴿ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ [البقرة: ١٩٧]. ووضحت الآيات بشدة أن التقوى وإن كان محلها القلب، فإن لها مظاهر تنبئ عما في القلب، وسلوكاً رشيداً يشير إلى تلك الصفة هو احترام شعائر الحق سبحانه: ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ ، ودلت على الأساس الأمتن، هو أساس التقوى. وأخيراً بينت أن العاقبة للتقوى، أى لهم العقبى في الأولى والآخرة.

و نبدأ رحلتنا المباركة مع هذه الآيات الكريمات، نفصل تلك المعانى، ونجلى تلك الحقائق، ونأخذ أول ما نأخذ قوله تعالى: ﴿ هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ ﴾ [المدثر: ٥٦]، توطئة للكلام على قوله تعالى: ﴿ وَلَـٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡ ﴾ [الحج: ٣٧]، لتعلقها بالله ﷻ فهى أحق بالبدء بها. والمعنى أنه سبحانه حقيق بأن يتقيه عباده ويخافوا عقابه، فيؤمنوا ويطيعوا، وحقيق بأن يغفر لهم إذا آمنوا وأطاعوا.[1] ونشير إلى ما ذكره صاحب «التحرير والتنوير» العلامة الطاهر بن عاشور[2]، يقول – رحمه الله[3]: «جملة ﴿ هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ ﴾ واقعة موقع التعليل لمضمون جملة ﴿ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴾ [المدثر: ٥٥]، تقوية للتعريض بالترغيب في التذكر، والتذكر يفضى إلى التقوى، فالمعنى: فعليكم بالتذكر، واتقوا الله تعالى، لأن الله هو أهل التقوى». وأهل الشى: مستحقة، وأصله أنه ملازم الشى وخاصته وقرابته وزوجته، ومنه: ﴿ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ ﴾ [هود: ٨١]، وعليه فأهل التقوى أى المستحق لها، وأهل المغفرة أى أن المغفرة من خصائصه،

(١) انظر الزمخشرى «الكشاف»، دار المعرفة، بيروت، (٤/ ١٦٢-١٦٣). والطبرى «جامع البيان في تفسير القرآن»، وعلى هامشه: النيسابورى «تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان»، دار الحديث، القاهرة، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، مجلد١٢، (٢٩/ ١٠٨). وابن كثير«تفسير القران العظيم»، مكتبة التراث الإسلامى، حلب، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، (٤/ ٤٤٧). والفخر الرازي«التفسير الكبير»، (١٦/ ١٣).

(٢) هو محمد الطاهر بن عاشور رئيس المفتين المالكين بتونس، ومولده ووفاته ودراسته بها ولد عام ١٢٩٦هـ/ ١٨٧٩م، وله مصنفات مطبوعة منها «التحرير والتنوير» في تفسير القرآن، وتوفى عام ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م. انظر عمر رضا كحالة «معجم المؤلفين»، (٣/ ٣٦٣).

(٣) الإمام محمد الطاهر بن عاشور«التحرير و التنوير»، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، (٢٩/ ٣٣٤-٣٣٥). و أضاف بيت الكشاف:

ألا يا ارحمونى يا إله محمد فإن لم أكن أهلاً فأنت له أهل

وأنه حقيق أن يغفر، لفرط رحمته وسعة كرمه وإحسانه، وهو تعريض بالمشركين أن يقلعوا عن كفرهم بأن يغفر لهم ما قد سلف، كما قال تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨] وتحريض للعصاة أن يقلعوا عن الذنوب، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ [الزمر: ٥٣]. وتعريف جزأى جملة ﴿ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ للقصر على الله تعالى أنه لا غيره يستحق أن يتقى ويتجنب غضبه، كما قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَـٰهُ ﴾ [الأحزاب: ٣٧]. وذكر ابن كثير في تفسيره حديث النبى ﷺ إذ قال: قال ربكم: «أنا أهل أن أتقى فلا يجعل معى إله، فمن اتقى أن يجعل معى إلهاً كان أهلاً أن أغفر له».[١] ونختم كلام ابن كثير بما أورده من تكرار كلمة (أهل) دون أن يقال: والمغفرة، للإشارة إلى اختلاف المعنى بين أهل الأولى وأهل الثانى.

ونعود إلى قوله تعالى: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَـٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ ﴾، وهو موضع شديد الارتباط بتقوى القلب وهو الإخلاص له سبحانه.

وقد نزلت الآية الكريمة[٢] لتبين للمؤمنين - بعدما ذكر الله تعالى من مناسك الحج وشعائره – أن الأصل في ذلك كله تقوى الله، وأن الواصل إليه - سبحانه - هو التقوى منكم، دون نفس اللحم والدم، على خلاف معتقدات أهل الجاهلية وفعلهم، فإنهم كانوا يلوثون بدماء القرابين ولحومها الكعبة

---

(1) انظر ابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (٤/ ٤٤٧).

(2) وهناك قراءة أخرى: (لن تنال الله لحومها ولا دماؤها)، بالتاء في الموضعين، فأنث لفظ التقوى، ومن قرأ بالياء فلأن التقوى والتقى واحد. انظر ابن الجوزى «زاد المسير»، (٥/ ٤٣٤).

المشرفة، ظناً أن ذلك يصل إلى الله.

قال الألوسى في روح المعانى[1]: «أى لن يصيب رضا الله تعالى اللحوم المتصدق بها ولا الدماء المهراقة بالنحر من حيث إنها لحوم ودماء، ولكن يصيبه ما يصحب ذلك من تقوى قلوبكم التي تدعوكم إلى تعظيمه تعالى والتقرب إليه سبحانه والإخلاص له ﷻ، وقال مجاهد: أراد المسلمون أن يفعلوا فعل المشركين من الذبح وتشريح اللحم ونصبه حول الكعبة ونضحها بالدماء تعظيماً لها، وتقرباً إليه تعالى» ا.هـ.

وفى الآية، بعد تخليص معتقدات أهل الإيمان من أى شائبة من شوائب الجاهلية وحمل أعمالهم وأقوالهم على التقوى، إشارة لطيفة إلى أن ينظروا إلى المقصود من هذا العمل ومن كل عمل، وهو ما يصل إلى الله – جل وعلا – من أعمالهم، وذلك هو الإخلاص المشار إليه بقوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾، فاعمل ما شئت وقل ما شئت ظاهراً وباطناً، فلن يصل من ذلك كله إلى الله العلى سوى ما كان منك على التقوى، فلتكن محاسبتك لنفسك إذاً على هذا المقياس، فما كان لوجه الله فأمضه، وما كان لغيره فدعه، فإن الله لا يصل إليه إلا ما كان خالصاً لوجه وصالحاً على سنة نبيه ﷺ: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ [فاطر: ١٠]، فكان هذا الموضع للتقوى داعياً المرء إلى الإخلاص في عمله، وترك الرياء فيه أو محبة ثناء الناس أو حب الظهور والشهرة، وتنقية عمله من كل هذه الشوائب المكدرة له والأمور المحبطة لثوابه.

يقول ابن الجوزى في «زاد المسير»[2]:

---

(١) محمود بن عبد الله الحسين الألوسى «روح المعانى في تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى»، دار الفكر ببيروت، طبعة ١٤٠٠هـ – ١٩٨٠م، (١٠/ ٢٧٩-٢٨٠).

(٢) الإمام ابن الجوزى «زاد المسير في علم التفسير»، المكتب الإسلامى، الطبعة الرابعة

«والإشارة بهذه الآية إلى أنه لا يقبل اللحوم والدماء إذا لم تكن صادرة عن تقوى الله، وإنما يتقبل ما يتقونه به، وهذا تنبيه على امتناع قبول الأعمال إذا عَرِيَتْ عن نية صالحة».

=

١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م، (٥/ ٤٣٤).

وابن الجوزى هو عبد الرحمن بن على بن محمد، ولد ببغداد عام ٥١٠هـ، محدث، حافظ فقيه، واعظ أديب، مؤرخ، مشارك في علوم أخرى وله مصنفات تزيد على ثلاثمائة وأربعين مصنفاً منها «زاد المسير في علم التفسير» وتوفى – رحمه الله – في بغداد عام ٥٩٧هـ. انظر السيوطى « طبقات المفسرين» ص١٧).

obeikandi.com

المطلب الخامس
محل التقوى

أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى:

وكلمة التقوى لا ينطقها ولا يعمل بمقتضاها ويثبت عليها إلا صاحب قلب عامر بالتقوى، ممتلئ منها، يخشى الله ويتقيه، فينضح ذلك على الجوارح، لأن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح سائر الجسد، وإذا فسدت فسد سائر الجسد، ألا وهى القلب، كما قال رسول الله ﷺ.[1] فقلبٌ خربٌ من التقوى فارغٌ منها أنَّى يتأتى منه كلام التقوى وألفاظ الخشية! ناهيك عن أعمال الإيمان وسلوك الطاعة. إن ما يتميز به ذلك الدين هو تلك الصلة الوثيقة بين القلوب وبين خالقها، تلك الصلة من المحبة والخشية والإنابة والطمأنينة بذكره والتعلق به، أى صلة التقوى التي كان القلب إذن محلها التقوى ومستقرها، منه تفيض، ومنه تنطلق.

وكان لذلك موعدنا مع مكان ومنـزل التقوى، وقد ذُكِرَ ذلك في موضعين من القرآن الكريم، الأول: قوله: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰ ﴾ [الحجرات: ٣]، والثانى: قوله: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الحج: ٣٢].

ونبدأ بالموضع الأول، وهو قول الحق سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾ [الحجرات: ٣].

---

(1) رواه البخارى (٥٢) من حديث النعمان بن بشير. انظر أحمد بن على بن حجر العسقلانى «فتح البارى»، (١/ ١٢٦). ومسلم (١٥٩٩)، وانظر النووى «شرح صحيح مسلم»، (٦/ ٣١).

يقول ابن جرير:(١)

«يقول تعالى ذكره إن هؤلاء الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله هم الذين اختبر الله قلوبهم بامتحانه إياها، فاصطفاها وأخلصها للتقوى».

وأول ما نشير، نشير إلى أن الآية ذكرت ميزة عظيمة لأهل التقوى، وهى أن قلوب أهل التقوى إنما اصطفاها الله تعالى لذلك، وهو وحده الذي أخلصها وهيأها ومحصها لتقواه تعالى، فكأن الله – جل وعلا – بسابق علمه علم أهلية هذه القلوب له، لتوحيده ومحبته وذكره، أى لتقواه الشاملة، فنقاها لذلك وهذبها، لتكون أوعيته من خلقه ومحل رحماته من بين المؤمنين به ﴿ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [الشورى: ١٣]، وذلك بما أعانها به ووفقها له من العمل الصالح من مثل ما ذكر سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ

(1) ابن جرير الطبرى، «جامع البيان»، مجلد١١، (٢٦/ ٧٦). والغض الكف في لين، كما يقول ابن جرير، ومنه غض البصر، وهو كفه عن النظر، كما قال جرير:

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلاباً

يقول ابن عاشور في «التحرير والتنوير»، (٢٦/ ٢٢٢-٢٢٣): «الغض حقيقته خفض العين، أى أن لا يحدق بها إلى الشخص، وهو هنا مستعار لخفض الصوت والميل به إلى الإسرار، والامتحان الاختبار والتجربة، واللام في قوله (للتقوى) لام العلة، والتقدير: امتحن قلوبهم لأجل التقوى، أى لتكون فيها التقوى، أى ليكونوا أتقياء».

فيجوز أن يجعل الامتحان كناية عن تمكن التقوى من قلوبهم وثباتهم عليها، بحيث لا يوجدون في حال غير متقين، وهى كناية تلويحية. ويجوز أن يجعل فعل (امتحن) مجازاً مرسلاً عن العلم، علم الله أنهم متقون، وعليه فتكون اللام في قوله (للتقوى) متعلقة بمحذوف حال من قلوب، أى كأنه للتقوى، فاللام للاختصاص».

و(أولئك) إشارة إلى الموصول تفخيماً لشأنه، وأنهم جديرون بالخبر المذكور بعده. انظر الألوسى «روح المعاني»، مجلد١٤)، (٢٦/ ٢٠٦).

﴿أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَـٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾[١]، وليس المقصود هو فقط خفض الصوت عنده، وإن كان مطلوباً تأدبا معه ﷺ حياً وكذلك ميتاً، كما طبقه عمر ﷺ[٢]، بل خفض الصوت دليل السمع والطاعة، إذ لا يعقل أن يخفض المرء صوته عنده ويخالف أمره ونهيه، ويكون مع ذلك من الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى، ولكن كف الصوت عنده عنوان التسليم لأمره والائتمار بحكمه، ودليل الاتباع لهديه وشرعه ظاهراً وباطناً حال حياته، ولسنته وشريعته بعد موته، كما فهمه بعض أهل العلم[٣]، لذا ورد قول الحق -

---

(١) وقد رأيت الأستاذ/ سيد قطب أشار إلى مثل ذلك في تفسيره «فى ظلال القرآن»، فيحسن ذكر لفظه. يقول - رحمه الله:

«فالتقوى هبة عظيمة، يختار الله لها القلوب بعد امتحان واختبار، وبعد تخليص وتمحيص، فلا يضعها في قلب إلا وقد تهيأ لها، وقد ثبت أنه يستحقها. والذين يغضون أصواتهم عند رسول عند رسول الله ﷺ قد اختبر الله قلوبهم وهيأها لتلقى تلك الهبة، هبة التقوى، وقد كتب لهم معها وبها المغفرة والأجر العظيم»، سيد قطب «فى ظلال القرآن»، دار الشروق، بيروت، الطبعة العاشرة ١٤٠١هـ، ١٩٨١م، (٦/ ٣٣٤٠).

(٢) روى ابن كثير في تفسيره، (٤/ ٢٠٧)، قال: روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ أنه سمع صوت رجلين في مسجد رسول الله ﷺ قد ارتفعت أصواتها، فجاء، فقال: أتدريان أين أنتما؟ ثم قال: من أين أنتما؟ قالا: من أهل الطائف، فقال: لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضرباً.

(٣) يقول الإمام القرطبى «الجامع لأحكام القرآن»، دار إحياء التراث العربى، بيروت، الطبعة الثانية، (١٦/ ٣٠٧):

«المسألة الرابعة: قال القاضى أبو بكر بن العربى: حرمة النبى ﷺ ميتاً كحرمته حياً، وحرمته المأثورة بعد موته في الرفعة، مثال كلامه المسموع من لفظه، فإذا قرئ كلامه وجب على كل حاضر ألا يرتفع صوته عليه، ولا يعرض عنه،كما كان يلزمه ذلك في مجلسه عند تلفظه به».

ويقول كذلك:

جل ذكره: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [النور: ٥١]، وقوله - سبحانه: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [النساء: ٦٥].

وقد فهم الصحابة ﷺ من ذلك أن رفع الصوت عنده ﷺ سبب الهلاك وحبوط العمل، فما بالك بأزيد من ذلك من مخالفة أمره أو التخلف عن طلبه، فكانوا مضرب المثل في الأدب معه، إذ القلوب الممتلئة من تقوى الله ﷻ لا يصدر منها حتى ولا رفع الصوت على المشرع ولا الشرع، إذ رفعه دليل التجرؤ واللامبالاة وقلة الأدب المنافى للخشية والتوقير النابع من تقواه - سبحانه.

فهذا ثابت بن قيس بن شماس(١)، الصحابى الجليل، خطيب رسول الله ﷺ يضرب لنا المثل الواقعى على ذلك، فقد ذكر ابن كثير في تفسيره(٢)، عن أنس ﷺ قال: لما نزلت هذه الآية: (لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى. ..) إلى قوله تعالى: (...وأنتم تشعرون)، جلس في بيته حزيناً ففقده رسول الله ﷺ ، فانطلق

=

« الخامسة: وليس الغرض يرفع الصوت ولا الجهر ما يقصد به الاستخفاف ولا الاستهانة، لأن ذلك كفر والمخاطبون مؤمنون».

(١) هو ثابت بن قيس بن شماس بن مالك بن زهير الخزرجى المدنى،يقال له خطيب الأنصار شهد أحداً وما بعدها من المشاهد وثبت في صحيح مسلم أن النبى ﷺ بشره بالجنة ﷺ ، قتل في موقعة اليمامة . انظر الإمام النووى «تهذيب الأسماء واللغات»، (١/ ١٣٩).

(٢) انظر ابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (٤/ ٢٠٦-٢٠٧)، والرواية التي ذكرها هى رواية الإمام أحمد بن حنبل «مسند أنس» رقم (١٢٤٢٦)، طبعة بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م، (ص٨٧٥).

بعض القوم إليه فقالوا له: تفقدك رسول الله ﷺ مالك؟ قال: أنا الذي أرفع صوتي فوق صوت النبي ﷺ وأجهر له بالقول، حبط عملي، أنا من أهل النار. فأتوا النبي ﷺ فأخبروه بما قال، فقال ﷺ: «لا، بل من أهل الجنة». قال أنس رضي الله عنه: فكنا نراه يمشي بين أظهرنا ونحن نعلم أنه من أهل الجنة، فلما كان يوم اليمامة، كان فينا بعض الانكشاف، فجاء ثابت بن قيس بن شماس وقد تحنط ولبس كفنه، فقال: بئسما تعودون أقرانكم. فقاتلهم حتى قتل رضي الله عنه.

فكانت هذه البشارة العظيمة لتلك القلوب التقية.

ويؤيد حديث النبي ﷺ هذا المعنى، وهو أن التقوى في القلب، فيقول ﷺ: «التقوى ها هنا» ويشير إلى صدره - ثلاثاً - «بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه».[١] وإذا كان أصل التقوى في القلوب، فلا يطلع أحد على حقيقتها إلا الله ﷻ، كما قال ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم».[٢]

وليس معنى هذا ترك العمل في الظاهر، كما يظنه كثير من الناس في أيامنا هذه، إذ يحسب أن قلبه سليم ويترك واجبات الشرع ويفرط فيها، بحجة أن ربنا رب قلوب، وهو معنى لم يخطر عليبال أحد من أهل العلم، لأن الحكم على الناس إنما هو بظاهر الشرع، فلو كانت قلوبهم سليمة كانت أعمالهم موافقة لما في هذه القلوب، وإلا كيف يدعى تاركو الصلاة - مثلاً - والواقعون في غير ذلك من نواهي الشرع تقوى قلوبهم؟ لذا يشير الحافظ ابن رجب في شرحه لحديث «إني حرمت الظلم على نفسي»، فيقول - رحمه الله تعالى: «وفي هذا الكلام دليل

---

(١) الحديث رواه مسلم (٢٥٦٤)، عن أبي هريرة رضي الله عنه. وانظر النووي «شرح صحيح مسلم»، (٨/ ٣٦٣).

(٢) الحافظ ابن رجب الحنبلي «جامع العلوم والحكم»، (٢/ ٢٧٥-٢٧٦).

على أن الأصل في التقوى والفجور هو القلب، فإذا بر القلب واتقى برت الجوارح، وإذا فجر القلب فجرت الجوارح، كما قال النبي ﷺ : «التقوى هاهنا»، فأشار إلى صدره».(١)

مما سبق، تتضح بجلاء مكانة القلب، وأنه محل تقوى الله تعالى، ومحل تمحيصه ونظره، فهو محل أنواره من التوحيد، مما يدفع المؤمنين للاهتمام بإصلاح قلوبهم بمزيد الطاعة والإخلاص لله تعالى، وتنقية القلوب مما يفسدها ويعكر صفوها ويطفأ نورها، سواء بمعاصي الجوارح فإنها سبب ظلام القلب وقسوته كما قال النبي ﷺ : «إذا أذنب العبد ذنباً نكتت في القلب نكتة سوداء، فإن تاب وأقلع صقلت، وإذا أذنب ذنباً آخر نكتت نكتة أخرى حتى يسود القلب، وذلك الران الذي قال الله تعالى: ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين: ١٤]. فإذا ما استحكم فساد القلب وسواده والران عليه صار قلباً ميتاً، لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه، فصار عنده الحق باطلاً والباطل حقاً، ورأيته على أسوأ سبيل في السلوك والعادات والأخلاق، وهو مشاهد في دنيا الناس اليوم.

وكذلك يسود القلب بما يرتكب من معاص متعلقة به، كالحقد والحسد والغش وحب الدنيا وطول الأمل والنفاق والرياء وترك الإخلاص، وهي أنكى وأشد.

كان إذاً القلب وتقواه والاهتمام به سبب كل سعادة ورفعة في الأولى والآخرة.

ولا يفوتنا أن نشير إلى احتمال آخر في حديث النبي ﷺ : «التقوى ها هنا»، ويشير إلى صدره، «بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم»، وهذا الاحتمال

---

(١) المصدر السابق، (٢/ ٤٧).

لمعنى كلامه ﷺ أنه لابد أن يسود علاقة المسلم بأخيه المسلم علاقة التقوى. قال بعضهم: ويحتمل أن يكون معناه محل التقوى هو القلب، فمن كان في قلبه التقوى فلا يحقر مسلماً، لأن المتقى لا يحقر مسلماً.[(١)]

والموضع الثانى من المواضع التي وردت التقوى فيها مضافة إلى القلب هو قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الحج: ٣٢]. وقد أخرنا ذكرها للمعنى الجديد المتعلق بتقوى القلب، وهو تعظيم شعائر الله تعالى، فإذا كنا قلنا قبلاً: إن تقوى القلب وبره تظهر على الجوارح والعكس كذلك، فإن الآية الكريمة توضح بغير لبس أن تعظيم شعائر الله -جل ذكره- أعظم الأدلة على تقوى القلب، فلا يكون القلب قد حَلَّتْه تقوى الله -سبحانه- وهو لا يعظم شعائره ومعالم دينه وأوامره ونواهيه، فإن ذلك أخص خصائص المتقين لربهم.

ترى المستهزئ بذلك، التارك لأوامره، الواقع في نواهيه، المسر بمعصيته أو الجاهر بها، تراه لله تقياً؟

ولقد ضربت الآية المثل في تعظيم تلك الشعائر وإجلال تلك الحرمات، بتعظيم البُدْن التي ينحرها الحاج في حجه، تقرباً إلى الله بها رجاء الثواب، وإطعاماً للبائس الفقير. وهذا الفعل، وإن كان في نظر المرء يمكن أن يكون هناك ما هو أفضل منه في جنسه أو من غير جنسه كما سنوضح، فقد أمر الشارع به، ليستخرج من القلوب تقواها، وليميز منها تعظيمها لأوامره، تنبيهاً على غيره من الأوامر، وإرشاداً لها على تعظيم بقية معالم الدين صغيرها وكبيرها، إذ الكل من الله - تبارك وتعالى - المستحق للتعظيم والإكبار.

---

(١) انظر د. محمد أديب الصالح «التقوى في هدى الكتاب والسنة وسير الصالحين»، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى ١٩٩٦م، (١/ ١١٢-١١٣).

ولنرى تحليل الآية:

اسم الإشارة هنا مستعمل للفصل بين كلامين أو وجهين من كلام واحد، كما يقدم الكاتب جملة من كتابه في بعض الأغراض، فإذا أراد الخوض في غرض آخر قال: هذا وقد كان كذا وكذا، والقصد منه التنبيه على الاهتمام بما سيذكره بعده، إذا كان ما بعده لا يصلح خبراً، والمعنى: ذلك بيان أو ذكر، والمشهور استعمال هذا، كما في قوله تعالى: ﴿ هَـٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّـٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ ﴾ [ص: ٥٥]، وقول زهير:

هـذا ولـيس كمـن يعيـا بخطبتـه وسـط النـدى إذا مـا قائـل نطقـا[١]

وإنما أوثر استعمال ذلك للبعيد للدلالة على بعد المنـزلة، كناية عن تعظيم مضمون ما قبله.

والشعائر جمع شعيرة، وهى المعلم الواضح، وشعائر الله لقب لمناسك الحج، وقيل: هى شرائع دينه تعالى.[٢]

وهى بوزن (فعيلة)، إما بمعنى اسم الفاعل، أى مُشْعِرة معْلِمة بما عينه الله، أو بمعنى مفعولة، أى مُشْعَرٌ بها تجعل ليَشْعُر بها الرائى، فعلى التفسير الأول تكون جملة ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ ... ﴾ معطوفة على جملة ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَـٰتِ ٱللَّهِ ...﴾ ، وشعائر الله أخص من حرمات الله، إذ الحرمة ما لا يحل هتكه، وجميع ما كلفه الله بهذه الصفة فيحتمل أن يكون عاماً في جميع التكاليف، فعطفت عليها للعناية بالشعائر. وشعائر الله كل ما أمر الله بزيارته أو بفعل يوقع فيه مما أشعر الله الناس وقرره وشهره، ومنه الكعبة والصفا والمروة وعرفة

---

(١) زهير بن أبى سلمى، ط دار بيروت ١٣٨٤هـ، ١٩١٤م، تحقيق أكرم البستانى.

(٢) انظر الألوسى «روح المعانى»، (١٠/ ٢٢١). والطاهر بن عاشور « التحرير والتنوير» (١٧/ ٢٥١).

والمشعر الحرام ونحوها من معالم الحج. وتطلق الشعيرة أيضاً على بدنة الهدى، قال تعالى: ﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ ﴾، لأنهم يجعلون فيها شعاراً علامة على أنها نذرت للهدى.

وضمير ﴿ فَإِنَّهَا ﴾ عائد إلى شعائر الله المعظمة، وقوله: ﴿ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ جواب الشرط، أى تعظيمها من أفعال ذوى تقوى القلوب، على رأى الزمخشرى[١] ومن تبعه كالرازى، والبيضاوى[٢] وأبى السعود[3]، وذهب البعض إلى أنها من تقوى القلوب[4]، وإضافة تقوى إلى القلوب لأن تعظيم الشعائر اعتقاد قلبى ينشأ عنه العمل. وتقوى القلوب أولى لموافقتها لصريح الكتاب الكريم.

---

(١) الزمخشرى «الكشاف»، (٣/ ٣١-٣٣). و عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسى «المحرر الوجيز»، تحقيق عبد السلام عبد الشافى محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، (٤/ ١٢١). والرازى «مفاتيح الغيب»، (١١/ ٢٧٣). والبيضاوى «أسرار التنـزيل»، (٤/ ١٢٥). وأبو السعود «إرشاد العقل السليم»، (٤/ ١٨).

(٢) هو عبد الله بن عمر بن محمد بن على البيضاوى الشيزارى الشافعى قاض عالم بالفقه والتفسير والأصلين والعربية والمنطق والحديث وأصولى وله تصانيف كثيرة منها منهاج الوصول إلى علم الأصول، وتوفى عام ٦٨٥هـ/ ١٢٨م. انظر ابن السبكى «طبقات الشافعية»، (٥/ ٥٩).

(٣) هو محمد بن محمد بن مصطفى العمادى الحنفى، ولد رحمه الله عام ٨٩٨هـ، فقيه، أصولى، مفسر، شاعر، عارف باللغات العربية والفارسية والتركية، وتوفى في ٥ من جمادى الأولى ٩٨٢هـ، ودفن بجوار أبى أيوب الأنصارى بالقسطنطينية، وله مؤلفات كثيرة منها «إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم». انظر الشوكانى «البدر الطالع»، (١/ ٢٦١).

(٤) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١٧/ ٢٥٧).

وإنما ذكرت القلوب، كما يقول الإمام الرازى[1]: «لأن المنافق قد يظهر التقوى من نفسه، ولكن لما كان قلبه خالياً عنها، لا يكون مجداً في أداء الطاعات، أما المخلص الذي تكون التقوى متمكنة في قلبه فإنه يبالغ في أداء الطاعات على سبيل الإخلاص»، ويكاد يكون هذا الكلام كلام أبى حيان[٢] في «البحر المحيط» بنصه. ويقول الزمخشرى: «وإنما ذكرت القلوب لأنها مراكز التقوى التي إذا ثبتت فيها وتمكنت ظهر أثرها في سائر الأعضاء».[٣]

لا ريب إذن أن تعظيم دين الله تعالى ومعالمه هو من عمل أصحاب القلوب التقية. ونلاحظ أن هذا الموضع بالذات من مواضع التقوى سيق في موضوع الحج ومناسكه وأعماله، لأن كثيراً من أعمال الحج - إن لم يكن كلها - لا مدخل للتعليل العقلى فيها، وإنما تعتمد على ما وقر في القلب من الإيمان وما تمكن فيه من التقوى كالطواف، والسعى سبعاً، ورمى الجمار سبعاً، وحلق الشعر أو تقصيره، ونحر البدن. لذا وجدنا عمر رضي الله عنه يقول في تقبيل الحجر: «أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أنى رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك».[٤] فتعظيم هذه الأمور والأفعال والأماكن، وإن لم يعلم المرء علتها، لها حِكَم لا

---

(١) انظر الفخر الرازى «مفاتيح الغيب»، (١١/ ٢٧٣).

(٢) أبو حيان الأندلسى «البحر المحيط»، دار الفكر بيروت، طبعة عام ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م، (٧/ ٥٠٦). وأبو حيان هو محمد بن يوسف بن على الغرناطى الجيانى الأندلسى الشهير بأبى حيان، ولد عام ٧٥٤هـ، وهو أديب نحوى لغوى مفسر له مصنفات عديدة تزيد على الخمسين أشهرها «البحر المحيط في تفسير القرآن» وتوفى بالقاهرة في ٧٤٥هـ. انظر ابن حجر «الدرر الكامنة» (٤/ ٣٠٢-٣١٠).

(٣) جار الله الزمخشرى «الكشاف»، (٣/ ٣٣).

(٤) حديث عمر رواه البخارى (١٦٠٥). وانظر ابن حجر العسقلانى «فتح البارى»، (٣/ ٤٧١)، ورواه مسلم (٢٤٨). وانظر النووى «شرح صحيح مسلم»، (٢/ ٢٠).

شك، دليل تقوى القلب والتسليم لأمر الرب - جل شأنه، وهو فيض الإيمان وبرد اليقين.

ومن هنا رأينا تطبيق ذلك في عمل الصحابة وأمر النبى ذاته ﷺ ، فمعنى تعظيم البُدن - لكونها من شعائر الله سبحانه - كما ذكر المفسرون هو أن تُخْتار حساناً سماناً غالية الأثمان، لأن اختيارها على غير ذلك يدل عليالبخل والشح والحرص على الدنيا، وغير ذلك من المعانى السيئة المنافية للتقوى، أن يضن المرء على نفسه بالثواب، ويبخل على الله تعالى بمال الله الذي جعله مستخلفاً فيه، فأي تقوى هذه إذاً؟ لذا روى أنه ﷺ أهدى مائة بدنة فيها جمل لأبى جهل في أنفه برة من ذهب[1]، وكان ابن عمر ﷺ يسوق البدن مجللة بالقباطى، فيتصدق بلحومها وبجلالها.

وقد يفكر المؤمن في أنه لو أهدى عدداً أكبر من البدن والهدايا بدلاً من عدد أقل أحسن وأثمن وأغلى لكان أولى، فإن الرد جاء من النبى ﷺ نفسه لعمر ﷺ فقد أهدى نجيبة طلبت منه بثلاثمائة دينار، وسأل النبى ﷺ أن يبيعها ويشترى بثمنها بدناً، فنهاه عن ذلك وقال: «بل أهدها».[2] يقول الأستاذ/ سيد قطب في ذلك: «ويربط - أى السياق - بين الهدى الذي ينحره الحاج وتقوى القلوب، إذ التقوى هى الغاية من مناسك الحج وشعائره، وقد كان المسلمون على عهد النبى ﷺ يغالون في الهدى ويختارونه سميناً غالياً، يعلنون بها عن تعظيمهم لشعائر الله مدفوعين بتقوى الله...، والناقة النجيبة التي أهديت لعمر ﷺ لم يكن يريد أن يضن بقيمتها، بل كان يريد أن يبيعها فيشترى بها نوقاً أو بقراً للذبح، فشاء رسول الله ﷺ أن يضحى بالنجيبة ذاتها لنفاستها وعظم قيمتها، ولا يستبدل بها

(١) جار الله الزمخشرى «الكشاف»، (٣/ ٣٣).

(٢) المصدر السابق، (٣/ ٣٢).

نوقاً كثيرة قد تعطى لحماً أكثر، ولكنها من ناحية القيمة الشعورية أقل، والقيمة الشعورية مقصودة ﴿ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾، وهذا هو المعنى الذي لحظه رسول الله ﷺ وهو يقول لعمر ﷺ: «انحرها إياها»، هى بذاتها لا سواها».[1]

هذه هى المعانى التي أكد عليها الرسول ﷺ لتدل على تقوى القلوب، وحمل فيها أهل الإيمان على أفضل البذل.

تلك تقوى القلوب، وأثرها في تعظيم الشرع ومعالمه، وأثرها في هذا السلوك الراشد الذي تستضىء به حياة الأمة، ويستنير طريقها إلى التقدم والرقى.[2]

---

(١) سيد قطب «فى ظلال القرآن»، (٤/ ٤٢٢).

(٢) فإذا تفشت هذه الأخلاق وجدنا الكل يراعى الله تعالى، عليه رقيب منه،مطلع على عمله، ناظر وشاهد لسره وعلنه، فرأينا حينئذ المدرس يراعى ربه، والطبيب يراعى ربه، والحاكم والمحكوم كل يراعى ربه، فيتقن كل واحد عمله، ويتفوق كل واحد في فنه، ويتقدم كل صانع في صنعته، ترى الأمة حالتئذ وقد تقدمت وخرجت عما هى فيه من الفساد والإفساد.

obeikandl.com

المطلب السادس
لباس التقوى

وما زال البحث متصلاً حول جوانب التقوى المختلفة، ليكتمل بنيانها في نفوس المؤمنين، وواقعهم ومجتمعهم. فإذا كان للتقوى محل وهو القلب، ولها كلمتها كلمة التقوى، ولها مظاهرها التي تنبئ عنها من تعظيم شعائر الله ﷻ، فإن لها لباساً يتميز به أصحابها، إذا رُؤُوا ذُكِرَ الله تعالى، فرؤيتهم تذكر به، وسلوكهم يدعو إليه.

إن الآية التي وصلنا إليها من مواضع التقوى هى قول الحق - جل اسمه: ﴿ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾.

ويحسن في البداية أن ننقل هنا كلام الأستاذ/ سيد قطب[1]، لنفاسته ولتصويره للواقع، ولكن مع تلخيصه لطوله. يقول - رحمه الله - قبل أن يبدأ في تفسير الآية - ما ملخصه: وأخيراً فإن القصة والتعقيبات عليها - قصة آدم عليه السلام كما سيجىء - تشير إلى شىء مركوز في طبع الإنسان وفطرته، وهو الحياء من التعرى وانكشاف سوأته:

﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا ﴾ [الأعراف: ٢٠].

﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ﴾ [الأعراف: ٢٢].

﴿ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ﴾.

---

(1) الأستاذ/ سيد قطب «فى ظلال القرآن»، (٣/ ١٢٧٥) وما بعدها.

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ ﴾ [الأعراف: ٢٧].

وكلها توحى بأهمية هذه المسألة وعمقها في الفطرة البشـرية، فاللباس وستر العورة زينة للإنسان وستر لعوراته الجسدية. كما أن التقوى لباس وستر لعوراته النفسية. والفطرة السليمة تنفر من انكشاف سوءاتها الجسدية والنفسية، وتحرص على سترها ومواراتها. والذين يحاولون تعرية الجسم من اللباس وتعرية النفس من التقوى ومن الحياء من الله تعالى، هم الذين يريدون سلب الإنسان خصائص فطرته وخصائص إنسانيته التي بها صار إنساناً، وهم الذين يريدون إسلام الإنسان لعدوه الشيطان وما يريده به من نزع لباسه وكشف سوأته.

إن العرى فطرة حيوانية، ولا يميل الإنسان إليه إلا وهو يرتكس إلى مرتبة أدنى من مرتبة الإنسان، وإن رؤية العرى جمالاً هو انتكاس في الذوق البشرى قطعاً، والمتخلفون في أواسط إفريقية عراة، والإسلام حين يدخل بحضارته إلى هذه المناطق يكون أول مظاهر الحضارة اكتساء العراة! فأما في الجاهلية الحديثة «التقدمية» فهم يرتكسون إلى الوهدة التي ينتشل الإسلام المتخلفين منها وينقلهم إلى مستوى «الحضارة» بمفهومها الإسلامى الذي يستهدف استنفاذ خصائص الإنسان وإبرازها وتقويتها.

وقصة النشأة الإنسانية في القرآن توحى بهذه القيم والموازين الأصلية وتبينها خير بيان.

وسوف نعود – إن شاء الله – لتكملة كلامه بعد النظر في الآيات.

ونلاحظ أن الخطاب موجه إلى جميع ذرية آدم، لا يختص بأحد دون أحد أو قوم دون قوم أو أهل ملة دون غيرهم، ليوحى بأن هذا الأمر وهو اللباس وتغطية السوءات يجب على كل الناس، لأن ذلك هو الفطرة والطبع السليم، وغير ذلك من التبرج والعرى وإظهار مفاتن المرأة إنما هو من غواية الشيطان

وفتنته لبنى آدم جميعاً، إذ ذلك ما حدث مع أبى البشرية كلها.

وهذا الخطاب بهذا المعنى يشمل المؤمنين والمشركين، ولكن الحظ الأوفى منه للمشركين، لأن حظ المؤمنين منه هو الشكر على يقينهم بأنهم موافقون في شئونهم لمرضاة ربهم، وأما حظ المشركين فهو الإنذار بأنهم كافرون بنعمة ربهم معرضون لسخطه وعقابه، لكونه لم يستقبلوا هذه النعمة وتلك المنة بما تستوجبه من طاعة الله تعالى والائتمار بأمره وعدم الانسياق مع وسوسة الشيطان وإغوائه، ففسقوا عن أمر ربهم وأفسدوا في الأرض بهذه الصنوف من العرى والتبرج التي كانت سبباً في إفساد غيرهم وإخراجهم عن تقوى الله - جل وعلا.

وابتدئ الخطاب بالنداء ليقع إقبالهم على ما بعده بالاهتمام البالغ بشراشر قلوبهم.

وكان لخطابهم ببنى آدم وقعه العجيب بعد ذكر قصة آدم ﵇ وما لقيه من وسوسة الشيطان ليبين لهم ما حدث لأبيهم مع عدوه وعدوهم، فتحترس الذرية من الوقوع في شركه، إذ شأن الذرية أن تثأر لآبائها وتعادى أعدائهم.(١)

ونرى في التفسير القرآنى ﴿ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا ﴾ تشريفاً لهذا المظهر، حيث عبر عن تيسير اللباس لهم وإلهامهم إياه بالإنزال من عند الله، ومن ثم كان أول مظاهر الحضارة الإنسانية، أو كان الذي على آدم من اللباس نزل به من الجنة، فكان له في معنى الإنزال مزيد اختصاص. وهذا تنبيه إلى أن اللباس من أصل الفطرة الإنسانية وهى أول أصول الإسلام، وأنه مما كرم الله به النوع الإنسانى منذ ظهوره في الأرض، وفيه تعريض بالمشركين الذين خرجوا عن هذا التكريم ومسخوا تلك الفطرة، وجعلوا من قرباتهم نزع لباسهم بأن يحجوا عراةً، وتعريض بغيرهم ممن جعله تقدماً ورقياً، بل هو ارتكاس في حمأة الجاهلية،

---

(1) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٨/ ٧٢).

وقد كان الأمم يحتفلون في أعياد أديانهم بأحسن اللباس، كما حكى عن موسى عليه السلام وأهل مصر: ﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ ﴾ [طه: ٥٩]، فكان في اللباس تقوى الله تعالى ظاهراً وباطناً.(1)

أما قوله تعالى: ﴿ لِبَاسًا يُوَارِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ﴾ فيقول الزمخشري: «أي أنزلنا عليكم لباسين: لباساً يوارى سوأتكم ولباساً يزينكم، لأن الزينة غرض صحيح كما قال: ﴿ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾».(2)

واختلف القراء في قوله تعالى: ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾، فمنهم من قرأها بالنصب، ومنهم من قرأها بالرفع، ولكل توجيه بديع. أما قراءة النصب فبالعطف على لباساً وريشاً، ويكون المعنى: أنزلنا عليكم لباساً يوارى سوءاتكم ولباساً يزينكم ولباساً للوقاية أى تتقون به – ويتعين أى يكون لباساً حقيقة – كلبوس الحرب من الدروع والجواش والمغافر، وذلك كقوله: ﴿ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ﴾. والإشارة في قوله: ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ تعود إلى هذا الملبوس المذكور، أى خير أعطاه الله بنى آدم، وتكون الجملة مستأنفة حينئذ.

وأما على قراءة الرفع فتكون الجملة معطوفة على جملة ﴿ قَدْ أَنزَلْنَا ﴾، والاختيار هنا أن يكون المراد بالتقوى تقوى الله تعالى وخشيته، لأن هذا المعنى أليق بالرفع، ويكون استطراداً للتحريض والحث على تقوى الله فإنها خير للناس من منافع الزينة، واسم الإشارة على هذه القراءة لتعظيم المشار إليه، وهو التقوى.

وأطلق على التقوى اللباس، إما بتخييلها بلباس يلبس، وإما بتشبيه ملازمة

---

(١) انظر لما سبق الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٨/ ٧٢-٧٤).

(٢) الزمخشرى «الكشاف»، (٢/ ٥٨).

تقوى الله بملازمة اللابس لباسه، كقوله تعالى: ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾[1]، مع ما يحسّن هذا الإطلاق من المشاكلة، وهذا المعنى الرفع أليق به، ويكون استطراداً للتحريض على تقوى الله، فإنها خير للناس من منافع الزينة، واسم الإشارة لتعظيم المشار إليه.

وقد رجح ذلك الإمام الطبرى - رحمه الله - فقال: «وأولى الأقوال بالصحة[2] في تأويل قوله: ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ استشعار النفوس تقوى الله في الانتهاء عما نهى الله عنه من معاصيه، والعمل بما أمر به من طاعته. وذلك يجمع الإيمان والعمل الصالح والحياء وخشية الله والسمت الحسن، لأن من اتقى الله كان به مؤمناً وبما أمر به عاملاً، ومنه خائفاً، وله مراقباً، ومن أن يُرَى عند ما يكرهه من عباده مستحيياً، ومن كان كذلك ظهرت آثار الخير فيه، فحسن سمته وهديه، ورؤيت عليه بهجة الإيمان ونوره».

ثم يعلل لهذا الاختيار - رحمه الله تعالى - بأن كل من ادرع شيئاً واحتبى به حتى يرى هو أو أثره عليه فهو له لابس، ولذلك جعل - جل ثناؤه - الرجال

---

(1) انظر: الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٨/ ٨٥). وأضاف الزمخشرى «الكشاف»، (٢/ ٥٨-٥٩): «كأنه قيل: ولباس التقوى المشار إليه خير. ولا تخلو الإشارة من أن يراد بها تعظيم لباس التقوى، أو أن تكون إشارة إلى اللباس الموارى للسوأة، لأن موارة السوأة من التقوى تفضيلاً له على لباس الزينة».

(2) الطبرى «جامع البيان»، (٨/ ١١٢). وقد ذهب إلى هذا القول لأن المفسرين فسروا لباس التقوى بعدة أقوال جمعها ابن الجوزى في عشرة أقوال. قال رحمه الله، (٣/ ١٨٢-١٨٣)، في زاد المسير: «وللمفسرين في (لباس التقوى) عشرة أقوال: أحدها: أنه السمت الحسن. قاله عثمان بن عفان، ورواه الذيال بن عمرو عن ابن عباس. والثانى: العمل الصالح. رواه العوفى عن ابن عباس. والثالث: الإيمان. قاله قتادة وابن جريح والسدى. فعلى هذا سمى لباس التقوى لأنه يقى العذاب... الخ».

للنساء لباساً، وهن لهم لباساً، وجعل الليل لعباده لباساً».

ونظرة أخرى على قوله ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾، يتضح لنا أن هذه الصيغة من صيغ العموم، ومن ثم يكون المعنى أن كل لباس يكون فيه تقوى الله ﷻ حسياً كان أو معنوياً فهو خير، فالمؤمن إذاً مطالب بأن تكون التقوى زيه الذي يرتديه، وثيابه التي يتدثر بها. فما كان مقرباً إلى الله تعالى من الزى والملبس فهو تقوى لله يحافظ عليها أهل الإيمان. فمثلاً، نهى النبى ﷺ عن التشبه بالكفرة مطلقاً في زيهم ولباسهم وسلوكهم واعتقاداتهم، وغيره مما يختصون به، قائلاً: «من تشبه بقومٍ فهو منهم»[1]، فيكون التشبه بهم في الزى والمظهر مما يدخل في هذا الباب من لباس التقوى، أى: إن لباسهم مخالف للتقوى وعليه يلزم مخالفتهم، والتزى والظهور بما كان يحب النبى ﷺ هو التقوى والأحب والأقرب إلى الله – سبحانه، علاوة على ما في التشبه بهم من الإحساس بعقدة النقص المظهرة للتخلف، والمزرية بماضى الأمة وهويتها وتراثها، والتي نراها من هؤلاء المتفرنجين. وهذا التقليد من هؤلاء يدل على ميلهم إلى ما نهى الله عنه من مودة الكفار وموالاتهم وتفضيلهم على بنى جلدتهم، والله – جل وعلا – حذرنا ذلك بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الممتحنة: ١].

ومن ثم قال رسول الله ﷺ : «خالفوا المشركين»[2]، وهو في أمور متعددة، مما يدل على اطراد طلب المخالفة وشموله، وهو في الملبس لا كما يقال في الجوهر، لأن الجوهر – والنهى عن التشبه بالكفرة فيه معلوم – لا يحتاج إلى بيان أو تنبيه،

---

(١) رواه أبو داود (٤٠٣١)، وحسنه الألبانى في تخريج أحاديث «المشكاة»، (٤٣٤٧).

(2) هكذا بصيغة الأمر. والحديث رواه مسلم (٢٥٩). وانظر النووى «شرح صحيح مسلم»، (٢/ ١٤٩).

وكأنه ﷺ يستشرف الغيب بإخباره عن تردى هذه الأمة حين تخرج عن أوامر ربها وسنة نبيها وتتبع الكفرة وتقلدهم وتسير سير الذليل الحقير المنكسر وراء سيده المنتصر، فيقول: «لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع، حتى إذا دخلوا جحر ضبٍ دخلتموه»، قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟».[1] وهذا الواقع الكريه لا تخطئه عين، حتى عد رجعياً ومتخلفاً ومقذوفاً بالسيل من الاتهامات من لا يسير في هذا السبيل ولا ينهج هذا النهج النكد.

والمتأمل في الآية لابد أن يقف متفحصاً عند قوله: ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾، فهى طلب التذكر وإعمال العقل والفكر ومدى ما أدت إليه هذه المخالفة لتلك الآيات - التي لابد أن تحمل على تقوى الله - من واقع مر ينبئ عن عظيم الخطر في مخالفة أمر الله تعالى، ومعاندة العقل، ومصادمة الفطرة، ومخالفة السنة، وما في ذلك من خزى وهوان في الدنيا والآخرة.

ونعود إلى كلام الأستاذ/ سيد قطب[2] كما وعدنا، يقول - رحمه الله: «فهناك تلازم بين شرع الله اللباس لستر العورات والزينة وبين التقوى. كلاهما لباس، هذا يستر عورات القلب ويزينه، وذاك يستر عورات الجسم ويزينه، وهما متلازمان. فمن شعور التقوى لله والحياء منه ينبثق الشعور باستقباح عرى الجسد والحياء منه. ومن لا يستحى من الله ولا يتقيه لا يهمه أن يتعرى وأن يدعو إلى العرى، العرى من الحياء والتقوى، والعرى من اللباس وكشف السوأة!».

---

(١) رواه البخارى (٣٤٥٦). وانظر ابن حجر العسقلانى «فتح البارى»، (٦/ ٤٩٥). ورواه مسلم (٢٦٦٩). وانظر النووى «شرح صحيح مسلم»، (٨/ ٤٧٢).

(2) الأستاذ/ سيد قطب «فى ظلال القرآن»، (٣/ ١٢٧٨-١٢٧٩).

المطلب السابع
كلمة التقوى

ونواصل التعرف على بقية مواضع التقوى، لنستكمل البحث، من هذه المواضع «كلمة التقوى» وقد وردت في قوله: ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الفتح: ٢٦]، فإذا كان للتقوى محل ولها لباس، وتعظيم للشعائر يدل عليها فإن لها كلمة كذلك، وجمهور المفسرين[١] هنا على أن كلمة التقوى هنا هى قوله «لا إله إلا الله»، وذكر بعضهم أنها «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، أو «لا إله إلا الله والله أكبر»، أو «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير»، أو هى «بسم الله الرحمن الرحيم»، وقيل عن مجاهد إنها الإخلاص، ونقل عن الزهرى[2] الوفاء بالعهد، هذا مجمل أقوال المفسرين، وهى أقوال لا يملك الباحث التسليم بها، إذ معناها أن الله ﷻ ألزمهم قول «لا إله إلا الله»، وهذا القول هم ملتزموه من قبل ومن بعد: ضحوا فيه بأنفسهم وأهليهم وأموالهم

---

(٢) وانظر ابن جرير الطبرى «جامع البيان»، مجلد ١١، (٢/ ٦٦-٦٧). والقرطبى «الجامع لأحكام القرآن»، مجلد٨، (١٦/ ٢٨٩). والفخر الرازى «التفسير الكبير»، (١٤/ ٣٤٥). وابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (٤/ ١٩٤). والزمخشرى «الكشاف»، (٣/ ٤٦٧). والإمام أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن على بن محمد الجوزى«زاد المسير في علم التفسير»، (٧/ ٤٤٢-٤٤٣) الطبعة الرابعة، المكتب الإسلامى. وأبو حيان «البحر المحيط»، (٩/ ٤٩٧). والألوسى «وروح المعاني»، مجلد١٤، (٢٦/ ١٧٨-١٨٠). وابن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٤-٢٥/ ١٩٥-١٩٧). وغيرها.

(٢) هو محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب الزهرى ولد عام ٥٨هـ، ٦٧٨م، محدث، حافظ، فقيه، مؤرخ، من أهل المدينة وتوفى رحمه الله ١٢٤هـ، له تصنيف في مغازى رسول الله ﷺ، انظر حاجى خليفة «كشف الظنون»، (ص١٤٦-١٤٧).

وأوطانهم، كذلك فإن القول بأنهم أحق بتلك الكلمة من غيرهم قول لا يظهر له وجه أو ميزة!

ولم يوجد من المفسرين والمحققين ممن قرأت لهم من أشار إلى هذا الاعتراض، أو بمعنى أدق أشار إلى بعض تلك المعانى وإن لم يورد فيه إشكالاً أصلاً إلا صاحب «التحرير والتنوير» العلامة ابن عاشور، وهاك ملخص تحقيقه – رحمه الله: إن كلمة التقوى إن حملت على ظاهر المعنى كانت من قبيل الألفاظ، وإطلاق الكلمة على الكلام شائع ،كقوله تعالى: ﴿ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ﴾ [المؤمنون: ١٠٠]، وفسرت هنا بقول «لا إله إلا الله». وإلزامهم إياها معناه أنه قدر لهم الثبات عليها قولاً بلفظها، وعملاً بمدلولها؛ إذ فائدة الكلام حصول معناه، وإضافة كلمة إلى التقوى بهذا التفسير حقيقية، ومعناها أن كلمة الشهادة أصل التقوى، لأن أساس التقوى اجتناب الأصنام من إضافة السبب إلى المسبب، ثم تتفرع على ذلك شعب التقوى. وأفاد – رحمه الله – أن الأسانيد التي رفعت تفسير الكلمة بـ «لا إله إلا الله» إلى الرسول ﷺ كلها ضعيفة، ولكنها وردت عن كثير من الصحابة، وهذا هو الاحتمال الأول.

والاحتمال الثانى: أن ﴿ كَلِمَةٌ ﴾ على غير ظاهر معناها، فتكون إضافتها بيانية، أو تطلق على حقيقة الشيء الأول، وتكون مقحمة كإقحام اسم في قول لبيد: **إلى الحول ثم اسم السلام عليكما**

ومنه قوله تعالى: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ﴾ على أحد التفسيرين، ويكون المعنى: وألزمهم التقوى، والثانى وهو إطلاقها على حقيقة الشيء ، كقول النابغة:

نبئت زرعة والسفاهة كاسمها يهدى إلى غرائب الأشعار

ويؤيده ما نقل عن مجاهد أنه فسرها بالإخلاص. فيكون المعنى على هذا الاحتمال الثانى أنهم تخلقوا بالتقوى لا يفارقونها، واستعير الإلزام لدوام

المقارنة. وهذا الاحتمال لا يعارض تفسير كلمة التقوى بالشهادة وهو الاحتمال الأول، لأنه تفسير للتقوى بجزىء من التقوى هو أهم جزيئاتها: وهو الشهادة.[١]

وآخر ما أشار إليه أهل التفسير لكلمة التقوى هو أنها الوفاء بالعهد، ويكون للإلزام. هنا معنى جديد هو الإيجاب، أى أمر المؤمنين أن يفوا بعهدهم مع المشركين في صلح الحديبية لذلك لم ينقض المسلمون العهد حتى كان المشركون هم الذين نقضوه.

والذى أذهب إليه - بعد عرض ما سبق من أقوال المفسرين - متوائماً مع فهمى للسياق، مستنداً إلى بعض ما ذكرته من إشارات أهل العلم، أن كلمة التقوى هنا عامة لأنها مفرد مضاف إلى معرفة فيكون من صيغ العموم، فتشمل كلمة التقوى حينئذ كل ألفاظ التقوى، أى ما فيه طاعة الله واتقاء غضبه، وليس الألفاظ فحسب بل الالتزام بمعناها والثبات عليها، ويكون المعنى: أن الله تعالى ألزم أهل الإيمان في كل ألفاظهم تقوى الله تعالى وثبتهم، أو يجب أن يثبتوا على تلك المعانى الحقة لألفاظ التقوى، فلا يصدر منهم إلا ما فيه تقوى الله تعالى قولاً وعملاً، لأنهم أحق بذلك شرعاً وقدراً، لما علم الله فيهم من محبتهم له، ومن خشيتهم لله ﷻ ومهابتهم واقتدائهم بالنبى ﷺ أن يلفظوا بأقوال لا تقوى فيها، أو أن يتلفظوا بأقوال التقوى ولا يعملوا بمقتضاها، أو يداوموا ويثبتوا عليها ثباتا على المبدأ وتمسكاً بالواجب الحق. والآية تحمل - كما أشار الأستاذ/ سيد قطب - الثناء على أصحاب النبى ﷺ حيث ألزمهم كلمة التقوى بأحقيتهم... الخ.[2] فلا يجوز للمؤمنين أن يخرجوا في ألفاظهم وأقوالهم عن

---

(١) انظر العلامة ابن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٦/).

(٢) انظر سيد قطب «فى ظلال القرآن»، (٦/ ٣٣٢٩).

تقوى الله ﷻ كما قال: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [ق: ١٨]، وقال النبى ﷺ : «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»[1]، فكان قول الخير أو الصمت علامة من علامات الإيمان بالله واليوم الآخر.

ونلاحظ أن القرآن الكريم عبر بالكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة، وأن الكلمة الطيبة هى كلمة التقوى على ما أشرنا، وعكسها الكلمة الخبيثة، وذلك قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٧].

ويتضح من قوله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ... ﴾ أن جزاء كلمة التقوى نطقاً والتزاماً، والثبات على ذلك هو تثبيت أصحابها بالقول الثابت في الحياة الدنيا، بأن ييسر الله لهم الأقوال الإلهية على وجهها، فإن (ال) في ﴿ بِٱلْقَوْلِ ﴾ للاستغراق، والباء للسببية. وأن يدركوا دلائلها حتى تطمئن قلوبهم فلا يخامرها شك، فيصبحوا ثابتين في إيمانهم غير مزعزعين، وعاملين غير مترددين. و﴿ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ يشمل ما كان من أمرها مما يحتاج التثبيت لأهوالها وكربها، وأول ذلك القبر. روى البخارى عن البراء بن عازب أن الرسول ﷺ قال: «المسلم إذا سئل في القبر شهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله»، فذلك قوله: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى

---

(١) رواه البخارى (٦٠١٨)، (٦١٣٦)، (٦٤٧٥). وانظر ابن حجر العسقلانى «فتح الباري»، (١٠/ ٤٤٥-٥٣٢)، (١١/ ٣٠٨). ورواه مسلم (٤٧). وانظر النووى «شرح صحيح مسلم»، (١/ ٢٩٣).

ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ ﴾»[١]، وهو الجزاء الذي من جنس العمل والذي طالما أكد عليه القرآن الكريم والسنة المشرفة.

obeikandi.com

(١) انظر ابن جرير الطبرى «جامع البيان»، مجلد٧، (١١/ ١٤٤). وابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (٢/ ٥٣١). والطاهر بن عاشور «التحريروالتنوير»، (١٢/ ٢٢٦-٢٢٧).

المطلب الثامن
خير الزاد التقوى

﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ ﴾ [البقرة: ١٩٧]:

التزود إعداد الزاد، وهو الطعام الذي يحمله المسافر، وهو مستعار للإكثار من فعل الخير استعداداً ليوم الجزاء، شبه بإعداد المسافر الزاد لسفره بناءً على إطلاق اسم السفر والرحيل على الموت. قال الأعشى[(١)]:

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى ... ولاقيت بعد الموت من قد تزودا

ندمت أن لا تكون كمثله ... وأنك لم ترصد بها كان أرصدا

هذا في المعنى المجازى للتزود، ويجوز استعماله في معناه الحقيقى على وجه استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه، فيكون التزود أمراً بإعداد الزاد من الطعام وغيره، ويكون تعريضاً كما في سبب نزول الآية بقوم من أهل اليمن يحجون بيت الله بغير زاد، يقولون: نحن متوكلون على الله، كيف نحج بيت الله ولا يطعمنا؟ فيكونون كلاً على الناس ثقلاء عليهم، فنبههم بأن خير الزاد ما يقيهم السؤال ويحفظهم من أن يكونوا ثقلاء على الناس، فإن ذلك من التقوى، لأن فيه صيانة ماء الوجه والعرض.[(٢)]

وهكذا يتضح أن التقوى زاد المؤمن في سفره في دنياه، وسفره إلى آخرته[(٣)]،

---

(١) ميمون بن قيس «ديوان الأعشى»، دار صادر بيروت، (ص٤٦).

(2) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والنوير»، (٢/ ٢٣٥-٢٣٦). وانظر العلامة الآلوسى «روح المعانى»، (٢/ ١٣٠). والقرطبى «الجامع لأحكام القرآن»، (٢/ ٤١١).

(3) يقول الإمام الرازى في مقاتيح الغيب، (٣/ ١٨٩)، ما حاصله: «وتحقيق الكلام أن الإنسان له سفران، سفر في الدنيا يتزود له الطعام والشراب والمركب، وسفر من الدنيا لابد له فيه من زاد هو معرفة الله ومحبته والإعراض عما سواه، وهذا الزاد الأخير خير

وهى إشارة أيضاً إلى لزوم استصحاب التقوى على كل حال من أحوال المؤمن سفراً وحضراً وكل ما كان فيه تقوى لله ﷻ حتى لو كان زاداً يأكله وشراباً يشربه فعليه أن يتزوده، فهو أقرب إلى الله وأحب إليه سبحانه، بل كل شأن من شئونه ولو كان مباحاً كالطعام والشراب لا ينبغى أن يخليه عن التقوى، فهو دليل التعلق بالله تعالى والالتزام بشرعه، ودليل على أن كل حركة وسكنه من المؤمن إنما هى لله تعالى، كما قال: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

وهناك ملحوظة، وهى أن المرء لما كان مسافراً إلى الآخرة في كل أوقاته، وأن رحيله إليها يمكن أن يتم بين لحظة وأخرى، فإن المؤمن الذي يهمه أمر آخرته ينبغى أن يكون مشغولاً في كل أوقاته بإعداد زاد الرحيل، لأنه غير منقطع السفر حتى يصل، فلا يضيع من وقته شيئاً في غير تقوى الله تعالى في أمر معاده ومعاشه، يضن بأنفاسه أن تضيع سدى بغير فائدة يرجو ثوابها في دينه ودنياه.

ولا يقدر هذا الأمر وذلك الخطر حق قدره إلا من أكرمه الله تعالى باستخدام عقله وبإعمال فكره ونظره في حاله في الدنيا وما هو مقدم عليه من أمر الآخرة، لذلك رأينا الآية الكريمة تختم بقول الله تعالى: ﴿ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾، أى واشتغلوا بتقواى يا أصحاب العقول، لأن الألباب جمع لب وهو العقل، واللب الخالص من كل شيء، وكأن مقتضى العقل الخالص عن

=

من الأول لوجوه، منها أن زاد الدنيا يخلص من عذاب موهوم ومنقطع وزاد الآخرة يخلص من عذاب دائم ومتيقن، وأن زاد الدنيا يوصل إلى شهوة النفس وزاد الآخرة يوصلك إلى عتبة الجلال والقدس، وأن الدنيا وزادها في ادبار وانقضاء وزاد الآخرة يوصلك إليها وهى كل ساعة في الإقبال والقرب والوصول. فثبت بما ذكرنا أن خير الزاد التقوى» اهـ. ويمثل ذلك أشار الخازن في تفسيره.

الشوائب شوائب الهوى وغيره تقوى الله سبحانه وتعالى.[١] يقول ابن عطية[٢] في المحرر الوجيز: «وخص أولو الألباب بالخطاب وإن كان الأمر يعم الكل، لأنهم الذين قامت عليهم حجة الله وهم قابلو أوامره والناهضون بها، وهذا على أن اللب لب التجارب وجودة النظر، وإن جعلناه لب التكاليف فالنداء بـ(أولى الألباب) عام لجميع المكلفين».

وقد يلحظ المرء تكراراً في الآية، فبعد الحث على التقوى أمر بها مرة أخرى في قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾، ولكن التحقيق أنه ليس هناك تكرار، لأنه حث على الإخلاص بعد الحث على التقوى.

ويوضح البيضاوى المعنى، فيقول – رحمه الله: « قضية اللب خشية الله وتقواه، حثهم على التقوى ثم أمرهم أن يكون المقصود بها هو الله تعالى فيتبرأ من كل شيء سواه».[٣]

---

(1) انظر الألوسى «روح المعانى»، (٢/ ١٣٠). وابن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢/ ٢٣٦). والرازى «مفاتيح الغيب»، (٣/ ١٩٠).

(٢) ابن عطية «المحرر الوجيز»، (١/ ٢٧٤).

(3) البيضاوى «أنوار التنـزيل»، (١/ ٤٨٣). وهذا ما ذكره أبو السعود بنصه في «إرشاد العقل السليم»، (١/ ٢٤٤).

المطلب التاسع
بقية مواضع التقوى

واستكمالاً للبحث لابد من الإشارة إلى بقية مواضع التقوى في القرآن الكريم، لتكتمل صورة التقوى، ونستأنف بهذه الآية الكريمة: ﴿ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [التوبة: ١٠٨]:

وحديث التقوى وزادها يدفع بنا إلى بيوت الله تعالى، وهى المساجد، حيث تتنزل الرحمة وتحط السكينة وتحف الملائكة، وفيها يستطيع المرء المؤمن أى يحصل التقوى، وأن يجهز منه ما يمكنه من مواصلة رحلة السفر إلى الآخرة.

وللمسجد في الإسلام أهميته القصوى، فهو المدرسة التي خرجت وتخرج قادة الإنسانية ورواد النهضة وفرسان الحق، فكان المسجد أول ما أسس النبى ﷺ عند وصوله للمدينة، لعلمه وإعلامه بعظم منزلته في بناء الأمة وتقوية الصلة بالله تعالى وإيقاظ الضمير وشحن القلوب بمادة التقوى، حيث تعلم العلم النافع والقيام بالعمل الصالح من ذكر وقراءة للقرآن، ومن قيام وصلاة ومن اعتكاف ومجاهدة، وفيه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وتعلم الدعوة إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة، وكذلك فيه يتم النظر في مصالح المسلمين وجمع صدقاتهم، وعقد ألويتهم وخروج جيوشهم ناشرة لواء الخير والعدل والسلام، بتعبيد الناس لرب العالمين وإخراجهم من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد.

وفيه علاوة على ذلك الإصلاح بين الناس وجمع شملهم وتوحيد صفهم وإظهار المساواة بينهم، لا فرق بين كبير وصغير ولا أبيض ولا أسود إلا بالتقوى، حيث الجميع أمام ربٍ واحدٍ صفاً واحداً بكتابٍ واحدٍ وإمام واحد يرجون رحمته ويخافون عذابه.(1)

(1) انظر د. محمد سعيد رمضان البوطى «فقه السيرة»، (ص١٥٢-١٥٣)، ١٣٩٨هـ،

فكان رسول الله ﷺ أول ما يبدأ يبدأ من بيت الله تعالى، وأول ما يرجع قبل رجوعه إلى أهله وبيته، يبدأ ببيت الله تعالى.(١)

ولما تفطَّن المنافقون لفضل المسجد وخطره، هداهم شيطانهم إلى هذا التفكير الخبيث - الذي ما فتئ المنافقون في كل عصر وزمان يستخدمونه - ليكيدوا للإسلام وأهله، وليحاربوا الله ورسوله، وليفرقوا به بين المؤمنين، ألا وهو مسجد الضرار، فيبنوا مساجد لإيقاع الضرر - بل أعظم الضرر - بالإسلام والمسلمين، أو يحولوا المساجد إلى مساجد ضرار، ليخرجوا بها المسلمين عن تقوى الله تعالى، بتحريم ما أحل الله أو بتحليل ما حرم الله، وبنشر الجهل والخزعبلات، وبإيقاع الفتنة بينهم والخلاف، وإلهائهم عن قضايا الأمة بفرعيات لا خطر للخلاف فيها، وشغلهم عن مهمات الأمور وقضايا الساعة والعودة إلى

=

١٩٧٨م، دار الفكر، الطبعة السادسة. يقول: «فقد أقبل رسول الله ﷺ بمجرد وصوله إلى المدينة واستقراره فيها على إقامة مجتمع إسلامى راسخ متماسك يتألف من هؤلاء المسلمين: الأنصار والمهاجرين الذين جمعتهم المدينة المنورة، فكان أول خطوة قام بها في سبيل هذا الأمر بناء المسجد. ولا غرو ولا عجب، فإن إقامة المسجد أول وأهم ركيزة في بناء المجتمع الإسلامى، ذلك أن المجتمع المسلم إنما يكتسب صفة الرسوخ والتماسك بالتزام نظام الإسلام وعقيدته وآدابه، وإنما ينبع ذلك كله من روح المسجد وحبه...إلخ».

وانظر الدكتور مهدى رزق الله أحمد «السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية دراسة تحليلية»، الطبعة الأولى، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، (ص٢٩٣) وما بعدها. وكذا صفى الدين المباركفورى «الرحيق المختوم (بحث في السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام)»، (ص٢٠٥-٢٠٦)، الطبعة الثانية، دار إحياء التراث.

(1) رواه البخارى (٤٤١٨). وانظر ابن حجر «فتح البارى»، (٨/ ١١٤). ومسلم (٢٧٦٩). وانظر النووى «شرح صحيح مسلم»، (٩/ ١٠٠) وما بعدها.

النبع الصافي في الكتاب والسنة وسير النبلاء من السلف الصالحين، حتى تبقى الأمة متخلفة لا قيمة لها ولا وزن في دنيا الناس، وهو ما يصبو إليه أعداء الأمة وأعداء الإسلام.

قام المنافقون في عهد رسول الله ﷺ فعلاً بهذا الفعل الهابط، فقاموا ببناء مجمع سموه مسجداً[(١)]، ليكيدوا فيه لله ولرسوله وللمؤمنين، وتهيئته لكل أصحاب العدواة والحقد على الإسلام ورسوله والمسلمين. وكان عبد الله عمرو أبو عامر من أشرافهم في الجاهلية، تنصر وتعبد حتى سمى أبا عامر الراهب، ولما جاء الإسلام شرق به ريقه ونافق وجاهر النبى ﷺ بالعداوة، وظاهر عليه الكفار واليهود. وبعد غزوة بدر ذهب إلى مكة وأقام فيها يحرض على النبى ﷺ.[(٢)] فلما فتح الله مكة ذهب إلى الطائف، فلما فتحت الطائف ذهب إلى الروم يستنصر بهم على أهله وعشيرته، يحارب رسول الله ﷺ والمسلمين - وذلك ديدنهم؛ العمالة لأعداء أمتهم والاستنصار بهم ضد أهلهم ووطنهم- ووعدهم أن يأتى بجيش من الروم ليطرد محمداً وصحبه من المدينة، وأن يعدوا هذا المجمع إرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل، وهو أبو عامر الفاسق، كما سماه باسمه اللائق به رسول الله ﷺ.[(٣)]

جاء المنافقون وطلبوا من النبى أن يصلى لهم في مسجدهم ويدعو لهم بالبركة حيث بنوه لذى العلة والحاجة والليلة المطيرة، يحلفون بالله كذباً إن أردنا إلا الحسنى، والله يشهد إنهم لكاذبون، وكان قريباً من مسجد قباء إمعاناً في

---

(1) انظر أبا حيان «البحر المحيط»، (٥/ ٥٠٢).

(2) وقال للنبى ﷺ: «لا أجد قوماً يقاتلونك إلا قاتلتك معهم».

(3) وقد جاء في السير أن رسول الله ﷺ دعا على الكاذب أن يموت طريداً شريداً غريباً، فمات أبو عامر على هذا النحو لما فر إلى الشام، طريداً شريداً غريباً، فكان هو الفاسق الكاذب.

تفريق المؤمنين وتشتيتهم. كان رسول الله ﷺ متجهزاً لغزوة تبوك، فقال لهم: «إنا على سفر وحال شغل، عندما نرجع – إن شاء الله – نصلي فيه»، يريدون بصلاته فيه تحصيل مزية لمسجدهم تروج لمقصدهم الفاسد وهدفهم الأثيم.

وعند رجوع المصطفى ﷺ من تبوك قبيل دخوله المدينة جاءه النهى الحاسم من الله – جل وعلا: ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ﴾، إنه مسجد لم يؤسس على التقوى، فأمر ﷺ عمار بن ياسر (١) في نفر من أصحابه أن اذهبوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وحرقوه. إنها المفاصلة بين الحق والباطل، ليس ثَم أنصاف حلول تلتقى فيها التقوى مع عدمها في منتصف الطريق، لا تقم فيه أبداً، وحرقوه واهدموه. (٢)

التقوى إذاً هى الفيصل بين ما كان لله تعالى فيبقى في الدنيا وله ذخره وثوابه يوم يقوم الأشهاد، وما كان لغيره فيهدم في الدنيا، ويوم القيامة يهوى بأصحابه في نار جهنم. (٣)

---

(1) قال معظم المفسرون: دعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم ومعن بن عدى وعامر بن السكن ووحشياً قاتل حمزة، فقال: «انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله ...». وانظر لما سبق القرطبى «الجامع لأحكام القرآن»، (٨/ ٢٥٣). وابن جرير «جامع البيان»، مجلد٧، (١١/ ١٨).

(2) (لاتقم فيه) أى: للصلاة، وقد يعبر عن الصلاة بالقيام. يقال: فلان يقوم الليل، أى يصلى، ومنه الحديث الصحيح: (من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه)، القرطبى «الجامع لأحكام القرآن»، (٨/ ٢٥٨)، والألوسى «روح المعانى»، (٧/ ٢٨).

(٣) انظر الشيخ محمد الغزالى «فقه السيرة»، الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، طبعة دار القلم، (ص٤١٤-٤١٥). ود.محمد سعيد رمضان البوطى «فقه السيرة»، (ص٣٢٤-٣٢٦). ود. مهدى رزق الله أحمد «السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية دراسة تحليلية».

ثم جاء التوجيه الحاسم بالأسلوب المعجز: ﴿ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾ [التوبة: ١٠٨]. فنقف عند هذا الموضع أولاً لنحلله، ثم نعود للموضع التالى للتقوى في هذه القصة.

اللام في قوله: ﴿ لَّمَسْجِدٌ ﴾ لام القسم، وقيل: لام الابتداء، والمعنى: والله لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه، وفيه تأكيد لمضمون الجملة. و(مسجد) مبتدأ، و﴿ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ صفته، وخبره ﴿ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ﴾.

و﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ﴾ صفة ثانية للمبتدأ جاءت بعد خبره على قول بعضهم، فبعد أن ذكر صفة المحل ذكر صفة الحال فيه، وعلى كل حال فيه تقرير وتحقيق لاستحقاق القيام فيه.

وهو حاصل كلام المفسرين[1]، وفيه تتضح معانى كثيرة عند النظر الفاحص لهذا النص الكريم.

أول هذه المعانى: تبيين الله تعالى لصفات المسجد الذي يجب أن يقوم فيه النبى ﷺ وأتباعه، بعد أن نهاه أن يقوم في مسجد الضرار أبداً. وهذه الصفات تدور كلها حول التقوى و المتقين، لأن المسجد - كما أشرنا - هو المكان الذي يحصل فيه المرء على وجه الخصوص زاد التقوى المأمور به.

فأقسم المولى ابتداءً بنفسه - سبحانه - أن المسجد الذي يجب أن يقوم فيه هو المسجد المؤسس على التقوى، سواءً في النية والقصد من إرادة وجه الله تعالى والدار الآخرة، أو من القيام بالشرع وإحياء السنة، أو من التعاون على البر

---

(١) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير و التنوير»، (١٠/ ٢٩). والعلامة أبا السعود «إرشاد العقل السليم»، (٢/ ٤٤٧-٤٤٨). والعلامة الألوسى «روح المعانى»، (٧/ ٢٨).

والتقوى وتقوية الروابط وإحكام عرى الوحدة و التكافل والتراحم والمساواة بين المؤمنين، أو من مساعدتهم على تحصيل زاد آخرتهم بتوثيق الصلة بينهم وبين ربهم، أو بغير ذلك من أسس التقوى اللازمة لقيام بناء محكم متين.

ولفرط اهتمام الصحابة بمعرفة أماكن التقوى وجدنا سؤالهم عن أى المساجد أسس على التقوى من أول يوم؟ وهى مسألة تنازعها أهل العلم بناءً على أقوال الصحابة. قال في البحر المحيط: «قال ابن عباس وفرقة من الصحابة والتابعين: المؤسس على التقوى مسجد قباء، أسسه رسول الله ﷺ وصلى فيه أيام مقامه بقباء وهى يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس وخرج يوم الجمعة، وهو أولى لأن الموازنة بين مسجد قباء ومسجد الضرار أوقع منها بين مسجد الرسول. وروى أنه قال: «هو مسجدى هذا» لما سئل عن المسجد الذي أسس على التقوى، وإذا صح هذا النقل لم يمكن خلافه».[1]

---

(١) انظر أبا حيان «البحر المحيط»، (٥/ ٥٠٤). والقول الأول قول الكشاف بحروفه، انظر (٢/ ١٧٢)، وتبعه البيضاوى، (٣/ ١٧٢)، وأبو السعود، (٢/ ٤٤٧)، والنسفى، (٢/ ١١١)، وذكر النيسابورى كلام الكشاف كذلك، مجلد٧، (١١/ ١٨) (على هامش الطبري). أما القول الثانى فترجيح ابن جرير، مجلد٧، (١١/ ٢١-٢٢)، وكذا ابن عطية، (٣/ ٨٢)، والقرطبى، (٨/ ٢٥٩-٢٦٠)، وهو ترجيح صديق خان في «فتح البيان»، (٤/ ١٩٧-١٩٨)، وسبقه الألوسى، (٧/ ٢٩).

وقول من قال: هو مسجد رسول الله ﷺ هو الأرجح - في نظر الباحث - لصحة الحديث الذي رواه مسلم: (هو مسجدى هذا)،فهو نص في المسألة، فلا نظر لخلافه، ويؤيده قوله: ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ﴾، والمسجد الذي قام فيه وداوم ﷺ مسجده المشرف. وأما قول من قال: ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ﴾ فهو صادق على رجال مسجد الرسول، بل هو من باب الأولى، أو هم الأنصار بغض النظر عن كونهم يصلون في قباء أو في مسجد الرسول ﷺ، ولا يعقل أن أهل قباء يصلون في قباء فقط، ولا يأتون مسجد النبى ﷺ صلاة معه وجهاداً وتعلماً واستفتاءً وغير ذلك!

ولم يقل – سبحانه – إنه أسس على التقوى فقط، وإنما أسس عليها من أول يوم قيامها، فقط وكأن ما أسس على غير التقوى من أول يوم ثم تبدلت أحوال القائمين عليه إلى التقوى أو تغيروا وتبدلوا بمتقين كذلك لا يزال المسجد المؤسس على التقوى من أول يوم أفضل وأحق أن يقام فيه(١)، وهذا يؤكد قيمة التقوى وعلو منـزلتها، والله أعلم.

الصفة الثانية من الصفات التي تدعو المرء إلى أن يقوم في المسجد المؤسس على التقوى من أول يوم: كون عمَّاره من الذين يحبون أن يتطهروا، وعبر بالمحبة لأن الذي يحب شيئاً ممكناً يفعله لا محالة، فقصد بذلك التنويه بأنهم يتطهرون

=

وأما روايات الطهارة النازلة فيهم – أى أهل مسجد قباء – فروايات ضعيفة كما ذكر الألوسى وصديق خان، وقد جمع بعضهم بين القولين. وقال الألوسى وتبعه حسن خان: «وجمع الشريف السمهودى بين الأخبار، وسبقه إلى ذلك السهيلى، وقال: كل من المسجدين مراد، لأن كلاً منهما أسس على التقوى من أول يوم. والسر في إجابته توهم السائل اختصاص مسجد قباء بمزية على هذا. ثم قال: ولا يخفى بعد هذا الجمع» أ.هـ. بتصرف. ورجح هذا الجمع العلامة ابن عاشور في «التحرير والتنوير»، (١٠/ ٣٢)، حيث قال ما حاصله: «ووجه الجمع عندى في قوله ﴿ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ أى: المسجد الذي هذا صفته فيكون وصفاً كلياً انحصر في فردين: مسجد الرسول ومسجد قباء، فأيهما صلى فيه حال دعوته للصلاة في مسجد الضرار كان أحق وأجدر».

وقال ابن كثير – رحمه الله، (٢/ ٣٨٩)، في الجمع بين القولين: «ولا منافاة بين الآية وبين هذا، لأنه إذا كان مسجد قباء قد أسس على التقوى من أول يوم فمسجد رسول الله ﷺ بطريق الأولى والأحرى».

(١) قال الإمام ابن كثير، (٢/ ٣٩٠): «دليل على استحباب الصلاة في المساجد القديمة من أول يوم بنائها على عبادة الله وحده لا شريك له، وعلى استحباب الصلاة مع الجماعة الصالحين والعباد العاملين المحافظين على إسباغ الوضوء والتنـزه عن ملامسة القاذورات».

تقرباً إلى الله بالطهارة وإرضاء لمحبة نفوسهم لها، بحيث صارت الطهارة خلقاً لهم، فلو لم تجب عليهم لفعلوها من تلقاء أنفسهم.(١) والطهارة تشمل الطهارة الحسية والطهارة المعنوية من تطهير النفس من الذنوب والمعاصي بالتوبة والاستغفار، فتلك صفات مسجد التقوى، وهذه صفات أهله.

الثاني: بينت الآية السابقة بهذا التعبير وهو ﴿ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ﴾(٢) أن المرء الذي يقصد تقوى الله فلا بد له من صحبة تعينه على ذلك، وتعاونه على إعداد زاده والعمل لآخرته، أو بمعنى آخر أن يقوم في المسجد الذي هذا أهله، فذلك أجدر أن يحقق هدفه من تقوى الله تعالى. وفى التعبير بكونهم رجالاً ما فيه من التنويه بشأنهم وإعلاء منزلتهم، وكفى به شرفاً، فمن هذه صفاتهم من طهارة القلب والنفس والبدن، ومن زكاء الفعل والقول هم الرجال.

الثالث: أن المعانى الجميلة في الآية ذلك الجزاء الرائع الذي لا جزاء فوقه،

---

(١) انظر العلامة ابن عاشور «التحرير والتنوير»، (١٠/ ٣٣).

(٢) قال المفسرون: هذه الآية نزلت في الأنصار. يقول صاحب «التحرير والتنوير» مختصراً هذه الأقوال: «وجملة ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ﴾ ثناء على مؤمنى الأنصار الذين يصلون بمسجد رسول الله ﷺ وبمسجد قباء. وكان المؤمنون من الأنصار يجمعون بين الاستجمار بالأحجار والغسل بالماء. وقد ذهب الإمام الفخر، (٨/ ١٧٨)، إلى أن الطهارة المراد منها التطهر عن الذنوب والمعاصي، وأن هذا القول متعين لازم لوجوه: الأول: أن التطهر عن الذنوب والمعاصي هو المؤثر في القرب من الله تعالى واستحقاق ثوابه ومدحه. والثاني: أنه تعالى وصف أصحاب مسجد الضرار بمضارة المسلمين والكفر بالله والتفريق بين المسلمين فوجب على كون هؤلاء على الضد من صفاتهم، وما ذاك إلا لكونهم مبرئين عن الكفر والمعاصي. والثالث: أن طهارة الظاهر إنما يحصل لها أثر وقدر عند الله لو حصلت طهارة الباطن من الكفر والمعاصي.

وهو محبة الله تعالى للمتطهرين، فإنهم لما أحبوا الطهارة أحبهم الله، والجزاء من جنس العمل، أو لما أحب المؤمن المتطهرين وقام معهم لله تعالى، تطهيراً لنفسه وإرضاءً لربه وتقوى له سبحانه، فإنه بذلك متعرض لمحبة الله له على قدر ما طهر نفسه وزكاها وحفظها ورعاها، أي بقدر ما حصل من تقوى الله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾.

الرابع: أن الآية أشارت في المقام الأول إلى عظمة هذا الجيل - الرعيل الأول - من أصحاب الرسول ﷺ، حيث نوهت بهم وبشأنهم وبجميل صفاتهم بعظيم تقواهم لله ثم بمحبة الله - جل وعلا - لهم.

وفى المقابل ألمحت الآية إلى أهل النفاق والشك والارتياب، من سوء نيتهم وخُبث طويتهم، وفساد قصدهم، فعرضت الآية بهم تعريضاً هتك أستارهم وفضح عداوتهم، حيث بينت أن مسجدهم لم يؤسس على التقوى، فكان حرياً بالمقاطعة والهدم والتحريق وعدم القيام فيه، وعرضت بمن فيه بأنهم غير متقين، حيث أنهم لا يحبون أن يتطهروا، يحبون الخبث والخبائث في القصد والنية والعمل والبناء، حتى ولو كان في صورة ما يحبه الله تعالى من بيوته، فهم جديرون ببغض الله إياهم.[١]

الخامس: جاءت الآية باسم التفضيل ﴿ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ﴾، فهل هناك مفاضلة بين التقوى وما أسس عليها وبين ما لم يؤسس على التقوى؟ هل يوجد وجه مقارنة حتى يقال: هذا أحق فقط من هذا؟ كلا، إن اسم التفضيل هنا مسلوب المفاضلة، لأن الله تعالى قال: ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ﴾، فكان معنى أحق أى كونه في نفسه حقيقاً بأن يقام فيه، إذ لا استحقاق للقيام في المسجد الضرار رأساً.

---

(1) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١٠/ ٣٣)، والفخر الرازى «التفسير الكبير»، (٨/ ١٧٧-١٧٨).

ولعل النكتة في الإتيان باسم التفضيل هو التهكم بالمنافقين[١] بأن مسجدهم - مجاراة لهم - وإن كان حقيقاً بالصلاة فيه فإن المسجد الذي أسس على التقوى أحق، أي إن مسجدكم لم يؤسس على التقوى، فليس جديراً إلا بأن يكون مكاناً تلقى فيه الجيف والقمامة، وأن يهوى بأصحابه في النار.

السادس: استنبط العلماء من الآية أن ما كان من المساجد لم يؤسس على التقوى ولم يبن على رضا الله تعالى فلا يقوم فيه المؤمن، إذ هو لاحق بمسجد الضرار، وقد طبق العلماء ذلك. يقول الإمام القرطبى[٢]: «وأسند الطبرى عن شقيق أنه جاء ليصلى في مسجد بنى عامر، فوجد الصلاة قد فاتته، فقيل له: إن مسجد بنى فلان لم يصل فيه بعد، فقال: لا أحب أن أصلى فيه، لأنه بنى على ضرار. قال علماؤنا: وكل مسجد بنى على ضرار أو رياء أو سمعة فهو في حكم مسجد الضرار، لا تجوز الصلاة فيه».

فهذه آثار التقوى، يتحرى أصحابها مواقع القبول وأماكن الرضا عند الله تعالى.

ونستكمل الموضع التالى للتقوى في سياق مسجد الضرار وهو قوله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [التوبة: ١٠٩]:

فبعد أن أقسم الله - سبحانه وتعالى - بأن المسجد الذي أسس على التقوى

---

(١) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١٠/ ٣١).

(2) القرطبى «الجامع لأحكام القرآن»، (٨/ ٢٥٤). وكذلك الكشاف أشار إلى ذلك، ونقل القصة. يقول الزمخشرى، (٢/ ١٧٢): «وقيل: كل مسجد بنى مباهاةً ورياءً وسمعةً أو لغرض سوى ابتغاء وجه الله، أو بمال غير طيب، فهو لاحق بمسجد الضرار».

من أول يوم هو الحقيق بالصلاة والدعاء دون غيره، بل إن غيره مصيره إلى الهدم والفناء ولا يجوز أن يقوم فيه المسلم، جاءت الآية التي معنى لتأكيد ذلك وبث السكينة في قلوب المؤمنين لمثل هذا الحكم الحاسم، ولمحو أى تردد في تلك المواقف والمبادئ الفاصلة، فضربت الآية هذا المثل شاهداً على ثبات وقوة ما بنى على التقوى، وهشاشة وخسة وسوء ما بنى على غيرها وسرعة انهياره، مما يدل على عاقبة ذلك وحسن ثوابه وسوء منقلب الآخر وأليم عقابه.

وبالنظر في الآية: نجد التفريع في قوله: ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ ...﴾ على قوله: ﴿ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ ...﴾ لزيادة بيان أحقية المسجد المؤسس على التقوى بالصلاة فيه، وبيان أن تفضيل المسجد تفضيل مسلوب المشاركة بعد ورود النهى عن الصلاة فيه.

والاستفهام للتقرير[(١)]، وأخرت الفاء عن همزة الاستفهام لأن الاستفهام حقه الصدارة.

ونلاحظ في الآية: أنه في الجزء الأول جاء الخبر بقوله (خير)، أى: أفمن أسس بنيانه على تقوى الله تعالى ورضوانه خير، وفى الجزء الثانى حذف الخبر وهو قوله (خير) وكأنه لدلالة الأول عليه، ولكنه في الثانى ومع حذف الخبر عقب بقوله: ﴿ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ﴾، وهو تركيب موح كأن الثانى لا

---

(١) هذا ما عليه جمهور المفسرون، وذهب صديق خان في «فتح البيان»، إلى أنه استفهام إنكارى، وكذا الألوسى في «روح المعانى»، (٧/ ٣٢). والفاء عاطفة على مقدر أى بعد ما علم حالهم، فمن أسس. والتأسيس: بناء الأساس، وهو قاعدة الجدار المبنى من حجر وطين أو خص. والبنيان في الأصل: مصدر بوزن الغفران والكفران، ويطلق البنيان على المبنى من الحجر والطين خاصة، وهو هنا مطلق على المفعول أى المبنى. والشفا (بفتح الشين والقصر): حرف البئر وحرف الحفرة. والجرف (بضمتين): جانب الوادى وجانب الهوة. وهار: اسم مشتق من هار، البناء إذا تصدع.

يستحق أبداً ذكر الخير معه، لأنه لا خير فيه البتة، كأنه - وهو الحق - شرٌ كله قصداً ونية وعملاً ونتيجة، ويذكر بقابل ذلك بأن الأول خير كله قصداً ونية وعملاً وعاقبة، حيث يقال في جواب الاستفهام: بل المؤسس على التقوى هو الخير، فالتمسك بذلك هو الخير، وقد يوحى تنكير الخير بشيء مما ذكر.

ونلاحظ في الجملة الثانية كذلك التعبير بكلمة (هار) أي: منهار، وفيه إشارة إلى أن من أسس بنيان دينه على غير التقوى، ورفع بنائه أياً كان على غير رضا الله تعالى، فقد أسس بنيانه على حرف منهار، ليس على حرف يوشك أي يسقط ويتداعى، بل هو منهار بالفعل، كما يؤكد اسم الفاعل البانى على شيء منهار متداع ساقط، يبنى وهو ينهار، فهل يتم له البنيان؟ وهل يستطيع هو نفسه أن يبنى والبنيان ينهار ويتساقط عليه منزلق فوق رأسه، يكاد أن يرجم به وأن يدفن تحته حياً. وهي توحى أشد الإيحاء بما عليه بناء التقوى والمتقون من ثبات البنيان وارتفاعه، وتحقق النتيجة للبنائين المتقين، وحفظ الله لهم.

وتبين الآية نتيجة البناء على غير تقوى، على الباطل والنفاق والرياء والسمعة، على غير ما يرضى الله، تبينها على أسوأ حال وهو الانهيار به[1] في نار جهنم، وهو العاقبة الوخيمة التي وضحت وجلت ما هو مقابلها وهو الجنة، تلك عاقبة الذين اتقوا وإن لم تذكر في الآية.[2]

---

(1) سواء عاد الضمير على البانى أو على البنيان وكانت الباء للتعدية أو للمصاحبة، أي: انهار به حال كونه مصاحبا له إلى النار.

(2) جاءت بعض الأخبار لتؤكد بظاهرها أن هذا المسجد وقع بعينه في نار جهنم، وليس هناك شئ خارج قدرة الله تعالى. يقول العلامة الألوسى، (٧/ ٣٣)، ما حاصله: «وظاهر الإخبار أن ذلك المسجد إذا وقع وقع في النار، فقد أخبر ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة أنه قال في الآية: والله ما تناهى ان وقع في النار. وذكر لنا أنه حفرت فيه بقعة فرأى منه الدخان...»، إلى أن يقول: «وأنت تعلم أنى والحمد لله مؤمن

وقد لخص صديق خان[1] البلاغة في الآية بقوله: «والمعنى أن من أسس بنيان دينه على قاعدة قوية محكمة، وهى تقوى الله ورضوانه، خير أمن أسس دينه على ضد ذلك، وهو الباطل والنفاق. قيل: إنه استعارة مكنية شبهت التقوى والرضوان بما يعتمد عليه البناء تشبيهاً مضمراً في النفس، وأسس بنيانه تخييل فهو مستعمل في معناه الحقيقى،أو مجازاً فتأسيس البنيان بمعنى إحكام أمور دينه، أو تمثيل لحال من أخلص لله وعمل الأعمال الصالحة بحال من بنى شيئاً محكماً مؤسساً يستوطنه ويتحصن فيه، أو البنيان استعارة أصلية والتأسيس ترشيح...»، إلى أن يقول: «وسبحان الله، ما أبلغ هذا الكلام وأقوى تراكيبه وأوقع معناه وأفصح مبناه».[2]

وهكذا أوضح هذا البيان المعجز بأوضح الأساليب أنه لا يستوى أبدا ما أسس لله مع ما أسس لغيره، وأن التقوى هى الفيصل في التفرقة في كل مراحل العمل نيةً وسلوكاً وواقعاً. وكذا لا يستويان عاقبة ونتيجة تنظرك. فهى دعوة

=

بقدرته سبحانه على أتم وجه وأنه ﷻ فعال لما يريد، لكنى لا أؤمن بمثل هذه الظواهر ما لم يرد فيها خبر صحيح عن رسول الله ﷺ. وقد سبق ابن عطية إلى القول بمثل ذلك، ولكنه رجح كونه مثلا، يقول: ﴿ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ الظاهر منه وما صح من خبرهم وهدم رسول الله ﷺ مسجدهم أنه خارج مخرج المثل. وقيل: بل ذلك حقيقة وأن ذلك المسجد بعينه انهار في نار جهنم. قاله قتادة وابن جريح، وهذا كله بإسناد لين، وما قدمناه أصوب وأصح.» ا.هـ.

(١) صديق خان «فتح البيان»، (٤/ ٢٠٠-٢٠١).

وهو محمد صديق خان بن حسن بن على، عالم، أمير مشارك في أنواع من العلوم ولد في قتوج بالهند في جمادى الأولى ١٢٤٨هـ، ١٨٣٢م، وله من تصانيفه الكثيرة أبجد العلوم،وتوفى عام ١٣٠٧هـ، ١٨٨٩م. انظر فهرس الفهارس للكتانى (١/ ٢٦٩).

(2) صديق خان «فتح البيان»، (٤/ ٢٠٠-٢٠١).

لبناء النفس والمجتمع على ذلك ليتقدم ويتطور.

والموضع التالى من مواضع التقوى هو قوله تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾[1] :

ويطلق البر في كلام الشرع على معنيين: أحدهما: على معاملة الخلق بالإحسان إليهم، وربما خص بالإحسان إلى الوالدين فقيل: بر الوالدين، ومن هذا المعنى قوله النبى ﷺ لما سُئل عن بر الحج، قال: «إطعام الطعام وإفشاء السلام»، وفى رواية: «وطيب الكلام».[2] والثانى: أى من معانى البر أن يراد به فعل جميع الطاعات الظاهرة والباطنة وذلك كقوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧].

فالبر بهذا المعنى يدخل فيه جميع الطاعات الباطنة كالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، والطاعات الظاهرة كإنفاق الأموال فيما يحبه الله ، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والوفاء بالعهد، والصبر على الأقدار، كالمرض والفقر، وعلى

---

(١) البر في اللغة: التوسع في فعل الخير، وينسب إلى الله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴾، وإلى العبد فيقال: بر العبد ربه. انظر الراغب الصبهانى «المفردات في غريب القرائن»، مادة بر. والإثم في اللغة: الذنب، وقد أَثِم إثماً ومأثماً إذا وقع في الإثم فهو آثم. انظر أبو بكر الرازى «مختار الصحاح»، ترتيب محمود خاطر، مادة: أثم.

(2) رواه الحاكم أبو عبد الله في المستدرك على الصحيحين (١/ ٤٨٣) من رواية جابر، وصححه، ووافقه الذهبى. وهو في «مجمع الزوائد» لنور الدين الهيثمى (٣/ ٢٠٧)، وقال: رواه الطبرانى في الأوسط واسناده حسن.

الطاعات كالصبر عند لقاء العدو.

وقد فسر النبى ﷺ البر بقوله: «البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس».[1]

فما علاقة ذلك كله بجواب النبى ﷺ: «البر حسن الخلق»؟ حسن الخلق يشمل هذه الخصال كلها لأنه يراد به التخلق بأخلاق الشريعة، والتأدب بآداب الله التي أدب بها عباده في كتابه، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القلم: ٤]، لذلك قالت السيدة عائشة: كان خلقه ﷺ القرآن، يعنى يتأدب بآدابه، فيفعل أوامره ويجتنب نواهيه، فصار العمل بالقرآن له خلق الجبلة لا تفارقه، وهذا أحسن الأخلاق وأشرفها.[2]

ولكن هل عطف التقوى على البر يقتضى المغايرة؟ فما معنى: ﴿ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾؟ ذكرنا فيما سبق توضيح معنى البر، وكان مهماً لمعرفة العلاقة بين البر والتقوى، لأن البر في المعانى السابقة هو تقوى الله تعالى، لذلك قال تعالى: ﴿ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ... ﴾ إلى قوله: ﴿ ... وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾، وجاء قوله تعالى ليؤكد هذا المعنى: ﴿ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾، وإذاً فما معنى قوله: ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾؟ خاصةً وأن الأصل في العطف أنه يقتضى المغايرة، وإلا كان المعنى: وتعاونوا على البر والبر، أو التقوى والتقوى. والتوفيق أن هذه الألفاظ إذا اجتمعت افترقت في المعنى، كلفظ الإسلام والإيمان والدين، فقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَـٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ﴾ تعنى أن الإسلام مقصود به معنى، وهو الأفعال الظاهرة في حديث جبريل، وهى الشهادتان والصلاة والصيام والزكاة والحج، والإيمان

(1) رواه مسلم (٢٥٥٣)، انظر النووى «شرح صحيح مسلم»، (٨/ ٣٥٢).

(2) انظر ابن رجب الحنبلى «جامع العلوم والحكم»، (٢/ ٩٣).

مقصود به الاعتقادات الباطنة، كالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. وأمَّا عند الإطلاق فيشمل كل منهما الآخر، أى إذا افترقا، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾، فلا شك أن الإسلام يشمل الإيمان والإحسان، وصار الدين كذلك يشمل الإسلام والإيمان والإحسان.

وكذا لفظ البر والتقوى عند اجتماعهما، كقوله تعالى السابق: ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾، فإن البر له معنى، والتقوى لها معنى على ما فصلنا في معانى البر، ومعانى التقوى. يقول الإمام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى»: «وقد قال في آية البر: ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾، فجعل الأبرار هم المتقين عند الإطلاق والتجريد، وقد ميز بينهما عند الاقتران والتقييد في قوله: ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾. وقد أشار ابن القيم إلى مثل ذلك في تفسير الآية.[1]

ثم ندرس الآن ما لم نتعرض له في دراسة نصوص البر والتقوى التي أشرنا إليها قبل، لأننا ذكرناها في مواضعها من البحث. أول ذلك قوله تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾، وعلى ما وضحنا من علاقة البر والتقوى يكون معنى الآية: ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾، أى على معاملة الخلق بالإحسان وبالتقوى معاملة الحق سبحانه بفعل طاعته، واجتناب محرماته، ويكون قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾ أن يراد بالإثم: المعاصى، وبالعدوان: ظلم الخلق، وذلك أنسب للسياق، لأنه في تأديب الله تعالى للمؤمنين في معاملتهم للكفرة، حيث أرشدهم إلى أن شنآنهم للكفرة لا يمنعهم من الإحسان إليهم ليحبوا دين الله، ولا يدفعهم لظلمهم

(1) شيخ الإسلام أحمد عبد الحليم ابن تيمية «مجموع فتاوى شيخ الإسلام»، (٧/ ١٨٣)، وانظر ابن القيم محمد بن أبى بكر «التفسير القيم»، جمع محمد أويس النووى، تحقيق محمد حامد الفقى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (ص٢٢٨).

لكونهم كفرة قد أذوا المسلمين وصدوهم عن المسجد الحرام، كل ذلك لا يحملهم على العدوان، بل يلزمهم الإقساط إليهم وعدم التعدى عليهم.

أما التعاون على البر والتقوى فجميلٌ أثره، وحسنٌ عاقبته، فقد سمعنا عنها وعشناها ذكريات.

لم تسعفنى المصادر والمراجع التي تحت يدى بتفسير موسع للآية، وكأنها واضحة بها لا مزيد عليه لتفسير أو شرح، فلم تزد على تفسير معنى الإثم والعدوان والبر والتقوى، مع إشارة للتفسير المناسب للسياق أو العموم في الآية.

يقول الإمام ابن جرير شارحاً لألفاظ الآية مجملاً لتفسيرها:

«وليعن بعضكم أيها المؤمنون بعضاً على البر، وهو العمل بما أمر الله بالعمل به، والتقوى، وهو اتقاء ما أمر الله باتقائه واجتنابه من معاصيه. وقوله: ﴿ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ ﴾ يعنى: ولا يعن بعضكم بعضاً على الإثم، يعنى على ترك ما أمركم الله بفعله، والعدوان». يقول: «ولا على أن تتجاوزوا ما حد الله لكم في دينكم وفرض لكم في أنفسكم وفى غيركم».

وأما مناسبة ذلك – وهو قوله: ﴿ وَتَعَاوَنُواْ ... ﴾ – للسياق، فهو على قول من قال: إن قوله ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰ ﴾ معطوف على قوله: ﴿ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ ﴾، فيكون المعنى كما يقول العلامة أبو السعود(١): «أى لا يكسبنكم شدة بغضكم لهم لصدهم إياكم عن المسجد الحرام اعتداءكم عليهم، وانتقامكم منهم للتشفى، ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰ ﴾، لما كان الاعتداء غالباً بطريق التظاهر والتعاون، أمروا أثر ما نهوا عنه بأن يتعاونوا على كل ما هو من باب البر

---

(١) العلامة أبو السعود «إرشاد العقل السليم»، (٢/ ٦). وبمثله قال الألوسى «روح المعانى»، (٤/ ٨٥).

والتقوى، ومتابعة الأمر، ومجانبة الهوى، فدخل فيه ما نحن بصدده من التعاون على العفو، والإغضاء عما وقع منهم دخولاً أولياً[١]، ثم نهوا عن التعاون في كل ما هو من مقولة الظلم والمعاصي، بقوله: ﴿ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَانِ ﴾، فاندرج فيه النهي عن التعاون على الاعتداء والانتقام».

وبتكملة النظر في الآية وجدنا النهي متأخراً عن الأمر، مع أن دفع المفاسد مقدم على جلب المصالح، أو كما يقول العلامة أبو السعود: «مع تقدم التخلية على التحلية، مسارعةً إلى إيجاب ما هو مقصود بالذات، فإن المقصود من إيجاب ترك التعاون على الإثم والعدوان، إنما هو تحصيل التعاون على البر والتقوى»[٢].

ونلاحظ أن التعاون على البر والتقوى متضمن للنهي عن الإثم والعدوان، لأن الأمر بالشيء نهي عن ضده، فالنهي تأكيد لمضمون الجملة قبله، ومع ذلك فالاهتمام بحكم الضد يقتضي النهي عنه بخصوصه، والمقصود أنه يجب أن يصد بعضكم بعضاً عن ظلم قوم لكم نحوهم شنآن، وهو أن البغض لا يقتضي ولا يكون سبباً لظلم المبغوض والاعتداء عليه، وأن تجتمع القبيلة مع بعضها في

(١) يوضح الألوسي هذا القول بأنه على قول من قال: إن قوله تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُواْ ...﴾ استئناف، والوقف لازم على قوله: ﴿ أَن تَعْتَدُواْ ﴾، لتصير الآية من جوامع الكلم، وتكون تذييلاً للكلام، ويكون هو المعنى العام في الآية، فيدخل في البر والتقوى جميع مناسك الحج، فقد قال تعالى: ﴿ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾، ويدخل العفو والإغضاء دخولاً أولياً. وإلى مثله أشار القرطبي «الجامع لأحكام القرآن» فيما نقله عن الأخفش، قال: هو مقطوع من أول الكلام، وهو أمر لجميع الخلق بالتعاون على البر، أو ليعن بعضكم بعضاً، وتحاثوا على ما أمر الله تعالى، واعملوا به، وانتهوا عما نهى الله عنه، وامتنعوا عنه، فقوله موافق لما روى عن النبي ﷺ أنه قال: «الدال على الخير كفاعله» ا.هـ، (٣/ ٤٦). وقد نقله د. أديب الصالح «التقوى»، (١/ ٤٦).

(٢) أبو السعود «إرشاد العقل السليم»، (٢/ ٦).

مواجهة الآخرين حميةً وعصبيةً مهما كان الآخرين مظلومين ومعتدى عليهم، ومهما كان أفراد القبيلة ظالمين آثمين معتدين.

ولم يفرق الإسلام كذلك في هذا المبدأ حتى مع اختلاف العقيدة والدين، بله العرق واللون والمكان، فالآية نزلت في المشركين الصادين عن سبيل الله وعن المسجد الحرام، المقاتلين للإسلام وأهله، والذين فعلوا في المسلمين ما يندى له جبين البشرية خزياً وأسفاً، ومع ذلك جاء الإسلام بالعدل والقسط في معاملتهم، حتى حال القدرة عليهم، ولم يرض لهم الظلم، مع أنهم البادئون به الساعون إليه.

ويجدر بنا أن ننقل كلمات الأستاذ/ سيد قطب في تفسير الآية، إذ أصاب في عمومه وجانبه الصواب في بعضه فننقل هنا ما حالفه فيه التوفيق، ونترك الآخر لتعليق الهامش. يقول – رحمه الله[(١)]: «إنها قمة في ضبط النفس، وفى سماحة القلب..، ولكنها هى القمة التي لابد أن ترقى إليها الأمة المكلفة من ربها أن تقوم على البشرية لتهديها، وترتفع بها إلى هذا الأفق الكريم الوضيء». ثم يمضى – رحمه الله – ليصف الجاهلية، وما جاء به الإسلام من منهج ربانى، وتربية استطاعت أن تروض نفوس العرب على الانقياد لهذه المشاعر، فيقول: «كانت حمية الجاهلية ونعرة العصبية.. كان التعاون على الإثم والعدوان أقرب وأرجح من التعاون على البر والتقوى، وذلك طبيعى في بيئة لا ترتبط بالله، ولا تستمد تقاليدها

ولا أخلاقها من منهج الله وميزان الله، يمثل ذلك كله المبدأ الجاهلى المشهور: «انصر أخاك ظالماً أم مظلوماً»[(٢)]، وهو المبدأ الذي يعبر عنه الشاعر الجاهلى وهو

(١) سيد قطب «فى ظلال القرآن»، (٢/ ٨٩٣).

(٢) هذا ما أشرنا إليه في بداية الكلام مما جانبه فيه التوفيق – رحمه الله تعالى، وليت مثل هذا

يقول:

وهل أنا إلا من غزية، إن غوت غويت، وإن ترشد غزية أرشد

ثم جاء الإسلام، جاء المنهج الرباني للتربية، جاء ليقول للذين آمنوا: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾ ﴾، جاء ليربط القلوب بالله، وليربط موازين القيم والأخلاق بميزان الله، جاء ليخرج العرب ويخرج البشرية كلها من حمية الجاهلية ونعرة العصبية وضغط المشاعر والانفعالات الشخصية والعائلية والعشائرية في

=

الكلام الجميل لم يعكر صفوه مثل ذلك، وقد ذكره من قبل ثم أعاد الكلام عليه مرة أخرى من بعد، وكأنه – رحمه الله – فاته– والغفلة والسهو من صفات البشرية – أن هذا حديث صحيح رواه البخارى، وانظر فتح البارى، (٥/ ٩٨)، باب «أعن أخاك ظالماً أو مظلوماً»، المطبعة السلفية، من كلام الرسول المعصوم ﷺ حيث قالوا: يا رسول الله، هذا نصره مظلوماً، فكيف نصره ظالماً؟ قال: تأخذ فوق يديه، وفى رواية: تحجزه عن الظلم، فإن ذلك نصره. نعم ذكر ذلك القول في الجاهلية، يقول الحافظ ابن حجر في «فتح البارى»، الموضع السابق: «لطيفة: ذكر المفضل الضبى في كتابه الفاخر أن أول من قال »انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً« جندب بن العنبر بن عمرو بن تميم، وأراد بذلك ظاهره، وهو ما اعتادوه من حمية الجاهلية، لا على ما فسره النبى ﷺ وفى ذلك يقول شاعرهم:

إذا أنا لم أنصر أخى وهو ظالم على القوم لم أنصر أخى حين يظلم » ا.هـ.

ومقصودنا، حتى وإن قيل ذلك وصار مبدأ في الجاهلية، فكم من أمور الجاهلية صححها النبى ﷺ فأخذنا الصحيح هذا الذي أقره الشرع، ونبذنا ما لم يقره، فصار هذا القول من قول الرسول ﷺ بهذا التفسير الرائع، بل ويصح أن يكون تفسيراً جميلاً للآية، لا كما أبقاه الأستاذ على معنى الجاهلية، فيتعاون الناس على نصر المظلوم، وكف الظالم، ولو كان أخاهم، ففى ذلك نصره، وهو من التعاون على البر والتقوى، وترك التعاون على الإثم والعدوان.

مجال التعامل مع الأعداء والأصدقاء».

ونعود لاستكمال النظر في الآية، حيث فصل بعض أهل العلم شيئاً من التعاون الذي يجب بين الناس، فنقل القرطبى عن ابن خويز منداد قوله: «والتعاون على البر والتقوى يكون بوجوه: فواجب على العالم أن يعين الناس بعلمه فيعلمهم، ويعينهم الغنى بماله، والشجاع بشجاعته في سبيل الله، وأن يكون المسلمون متظاهرين كاليد الواحدة: «المؤمنون تتكافؤ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم»[١]، ويجب الإعراض عن المعتدى، وترك النصرة له، ورده عما هو عليه».

وهذا كالمقدمة لما ذكره علماء الحديث في باب التعاون على البر والتقوى، ومنهم الإمام النووى[٢]، حيث ذكروا من أحاديث النبى ﷺ ما يوضح شيئاً من هذا التعاون يكون نبراساً لبقية أنواع التعاون، وفى نفس الوقت تبين جزاء هذا التعاون وعظيم ثوابه عن الله – جل وعلا. فالحديث الأول عن الجهاد يبين أن المعين للمجاهد الغازى على الجهاد أن له أجر الغزو، مع أنه لم يغز، يقول رسول الله ﷺ: «من جهز غازياً في سبيل الله فقد غزا، ومن خلف غازياً في أهله بخير فقد غزا»[٣]، وفى رواية لابن حبان: «كتب له مثل أجره لا ينقص من أجره شيء»،

---

(١) رواه أبو داود سليمان بن الأشعث، تعليق محمد محيى الدين عبد الحميد، دار إحياء السنة النبوية، (٢٧٥١). وابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى، المكتبة العلمية، بيروت، (٢٦٨٣).

(٢) أبو زكريا يحيى بن شرف النووى، ت ٦٧٦هـ، في كتابه «رياض الصالحين» مع شرحه دليل الفالحين، للإمام محمد بن علان الصديقى، ت ١٠٥٧هـ، دار الريان للتراث، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، (١/ ٤٥٥) وما بعدها.

(٣) متفق عليه، من رواية زيد بن خالد الجهنى. رواه البخارى (٢٨٤٣)، وانظر ابن حجر العسقلانى «فتح البارى»، (٦/ ٤٩). ورواه مسلم (١٨٩٥)، وانظر النووى «شرح صحيح مسلم»، (٧/ ٤٦).

بل إن من خلف غازياً في أهله بخير، من قضاء حاجة لهم أو إنفاق عليهم أو ذب عنهم أو مساعدتهم في أمرهم، كان غازياً هو الآخر، له أجرهن لا ينقص من أجره شيء، وإن كان عظم الثواب يختلف باختلاف الجهاز والنفقة والقيام على مصلحة أهل الغازى قلةً وكثرةً.

إن التعاون على البر والتقوى وجزيل الثواب عليه جعل ثواب المجهز والمتخلف في أهل الغازى بخير ثواب، من عرض نفسه للموت، وتحمل مشقة السير، وكابد متاعب القتال والمواجهة.

والحديث الثانى في الحج، عن ابن عباس – رضى الله عنهما: أن رسول الله ﷺ لقى ركباً بالروحاء، فقال: من القوم؟ قالوا: المسلمون، فقالوا: من أنت؟ قال رسول الله ﷺ : فرفعت إليه امرأة صبياً، فقالت: ألهذا حج؟ قال: نعم ولك أجر.[(١)]

فإذا كان الحديث الأول في الجهاد يبين التعاون على البر والتقوى، فهذا في الحج يبين كذلك قيمة التعاون على طاعة الله تعالى، حتى ولو كان المتعاون معه المحمول على ذلك صبياً صغيراً غير مكلف، فما بالك لو كان مكلفاً، وكذلك لو التعاون فيما هو أخص من هذا الأمر، مما يلزمه ويخصه مباشرة. وهذا يوضح ثواب التعاون على الطاعة، وأهمية أن يقوم الناس بإعانة بعضهم بعضاً على القيام بمثل هذه القربات والتقرب إلى الله تعالى بالإعانة على جميع الطاعات، وأن في كل أجراً لا ينقص به أجر الآخر.

والثالث عن أبى موسى الأشعرى ﷺ عن النبى ﷺ أنه قال: «الخازن المسلم الأمين، الذي ينفذ ما أمر به فيعطيه كاملاً موفراً طيبةً به نفسه، فيدفعه إلى الذي

---

(١) رواه مسلم في الحج (١٣٣٦)، وانظر النووى «شرح صحيح مسلم»، (٥/ ١٠٩).
الروحاء: محل بقرب المدينة، انظر الصديقى الشافعى «دليل الفالحين»، (١/ ٤٥٦).

أمر له به، أحد المتصدقين». [١]

فإذا كان الحديث الأول فيمن يعين على الجهاد، والثانى على الحج، فهذا في الخازن الأمين كيف جعله رسول الله ﷺ بتعاونه أحد المتصدقين، فإذا ما أخرج ما أمر بإعطائه من المال على النحو الذي ذكره النبى ﷺ كان متصدقاً مع أنه ليس بماله، ونلاحظ قول الرسول ﷺ: «فيعطيه كاملاً موفراً» تأكيد بعد تأكيد لما غلب على الخزان من بخلهم بمال غيرهم، أما قوله «طيبة بها نفسه» أى بغير حسد للآخذ على ما أخذ، وهو ليس ماله حتى تطيب أو لا تطيب بها نفسه، ومع ذلك أشار إليه لغلبة الحسد على إعطائهم المال لغيرهم، أو لعبوسهم وتقطيب وجوههم بما يكدر خاطر المعطى، فانظر كيف عظم أجرهم. وفى هذا توصية من النبى ﷺ لأمثال هؤلاء في كل زمان ومكان، لإحسان معاملتهم ظاهراً وباطناً لكل مسلم له تحت أيديهم مصلحة يثابون على قضائها هذا الثواب العظيم.

ونختم بقوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾، وسياق هذه الآية الكريمة هو: ﴿ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾، فكما ذكر سبحانه وتعالى في آية البر: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ ...﴾، فهكذا هنا ليس البر بأن يأتوا البيوت من ظهورها، ولكن البر في تقوى الله تعالى. وقد ذكر أن الأنصار في الجاهلية كانوا إذا رجعوا من الحج دخلوا بيوتهم من ظهورها، فرجع أحدهم فدخل من بابه، فكأنه عُيِّر بذلك، فنزلت الآية الكريمة لترشدهم أن البر ليس في اتيان البيوت من ظهورها، ليس في ذلك بر، كما أنه التوجه في ذاته إلى المشرق والمغرب ليس فيه

---

(١) متفق عليه. رواه البخارى (١٤٣٨)، وانظر ابن حجر العسقلانى «فتح البارى»، (٣/ ٣٠٢). ورواه مسلم (١٠٢٣)، وانظر النووى «شرح صحيح مسلم»، (٤/ ١٢٠).

بر، وأخبرهم أن البر في تقوى الله تعالى، ونهاهم ثم عن تلك العادة من عادات الجاهلية، وهى اتيان البيوت من ظهورها، وأنها ليست من علامات الفلاح، ولا العمل الصالح، فقال: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾.(١)

وقد ذكر الزمخشرى في «الكشاف» أن هذه الآية تحتمل أن تكون تمثيلاً لتعكيسهم في السؤال وهو قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ﴾ وأن مثلهم كمثل من يترك باب البيت ويدخله من ظهره، والبر من اتقى ذلك، ومباشرة الأمور من وجوهها، والمراد توطين النفوس وربط القلوب على أن جميع أفعاله حكمه وصواب من غير اختلاج تردد أو شك.(٢)

وإذا قلنا: إن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فلا مانع أن يزاد هذا المعنى على التفسير السابق للآية، فتشمل الآية الكريمة هذا وذاك، خاصة وقد صار هذا التذليل مثلاً، وهو قوله: ﴿ وَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ ﴾.

والموضع التالى هو قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٨]:

فإذا كان الله تعالى أهل التقوى، والداعى إليها رسول الله ﷺ وأتباعه بإحسان، ولها كلمتها وهديها، فإن هذه الآية الكريمة تبين لنا طريقاً هو أقرب للتقوى، ومكاناً ينـزل فيه المرء بجوارها أو يحل عندها، ألا وهو العدل مع القريب والبعيد والعدو والصديق، مع المسلم والكافر، ترفعاً عن نزعات الميل والهوى لجنس أو عرق أو دين، وتخلصاً كذلك من رغبات النفس ضد

(1) انظر ابن جرير الطبرى «جامع البيان»، (٢/ ١٠٨). وانظر ابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (١/ ٢٢٥). والطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢/ ١٨٩).

(2) انظر جار الله الزمخشرى «الكشاف»، (١/ ١١٧-١١٨).

المكروهين والمبغوضين إلى أفق العدل والحق والقسط. إنه منهج الله – سبحانه وتعالى – الحامل للنفس البشرية على الضبط وفق معايير الحق والخير الخاضع لسلطان الله تعالى وحده، الذي يجعل تلك القلوب حية تستشعر خوف الله ومراقبته والخشية له الباعثة على السلوك السوى والخلق الرشيد والعمل الصالح، مهما يكن فيها من مشقة وجهاد.

وإذا كانت الآية الكريمة السابقة قد نهى الله تعالى فيها المؤمنين أن يحملهم الشنآن لمن صدوهم عن المسجد الحرام على الاعتداء، وكانت الغاية في ضبط النفس والسماحة، يرفعهم الله إليها بمنهجه التربوى القويم، فهاهم أولاء ينهون أن يحملهم الشنآن على أن يميلوا عن العدل، يقول الأستاذ/ سيد قطب(١): «وهى قمة أعلى مرتقى وأصعب على النفس وأشق، فهى مرحلة وراء عدم الاعتداء، والوقوف عنده تتجاوزه إلى إقامة العدل مع الشعور بالكره والبغض. إن التكليف الأول أيسر لأنه إجراء سلبى ينتهى عند الكف عن الاعتداء. فأما التكليف الثانى فأشق لأنه إجراء إيجابى يحمل النفس على مباشرة العدل والقسط مع المبغوضين المشنوئين».

كل ذلك يحدث وينبغى أن يحدث لعلة واحدة، هى أن ذلك أقرب للتقوى، أقرب لما يحب الله – جل وعلا، يقول الإمام الفخر الرازى، في قوله: ﴿ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ ﴾: «فنهاهم أولاً عن أن يحملهم البغضاء على ترك العدل، ثم استأنف فصرح لهم بالأمر بالعدل تأكيداً وتشديداً، ثم ذكر لهم علة الأمر بالعدل، وهو قوله تعالى: ﴿ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ ﴾»(٢).

---

(١) انظر سيد قطب «فى ظلال القرآن»، (٢/ ٨٥٣).

(٢) الفخر الرازى «التفسير الكبير»، (٥/ ٦٢٠). وهو قول معظم المفسرين من قبل، انظر الزمخشرى «الكشاف»، (١/ ٣٢٦-٣٢٧)، والبيضاوى، (٢/ ٣٠١)، والنسفى،

ويكمل الإمام فيقول:

«وفيه وجهان - أي معنى التقوى هنا: الأول: هو أقرب إلى الاتقاء من معاصى الله تعالى. والثانى: هو أقرب إلى الاتقاء من عذاب الله».(١)

=

(٢١٣/١)، وأبا حيان «البحر المحيط»، (١٩٦/٤). والألوسى «روح المعانى»، مجلد٤، (١٢٣/٥).

يقول العلامة الألوسى في تفسير الآية: «﴿ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ ﴾ أى كثيرى القيام له بحقوقه اللازمة، وقيل: أى ليكن من عادتكم القيام بالحق في أنفسكم بالعمل الصالح، وفى غيركم بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ابتغاء مرضاة الله تعالى، ﴿ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ﴾ أى بالعدل، ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ ﴾ أى لا يحملنكم، ﴿ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ ﴾ أى شدة بغضكم لهم، ﴿ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ﴾: فلا تشهدوا في حقوقهم بالعدل، أو فتعدوا عليهم بارتكاب ما لا يحل، ﴿ ٱعْدِلُواْ ﴾ أيها المؤمنون في أوليائكم وأعدائكم. ﴿ هُوَ ﴾ راجع إلى العدل، ﴿ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ أى أدخل في مناسبتها... إلخ».

(١) الرازى «التفسير الكبير»، (٥/ ٦٢١).

وأفعل التفضيل هنا على غير بابه، إذ لا يشترك العدل مع الجور في قربهما من التقوى، ولكن العدل أقرب، بل ذلك كقوله: ﴿ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾، إذ ليس فيما يشركون خير حتى تعقد المقارنة، يقول الإمام ابن كثير: «وقوله ﴿ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ من باب استعمال أفعل التفضيل في المحل الذي ليس في الجانب الآخر منه شيء، كما في قوله تعالى: ﴿ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾، الإمام ابن كثير »تفسير القرآن العظيم«، (٢/ ٣٠-٣١). وتكلف الراغب الأصفهانى - على حد تعبير العلامة الألوسى - في توجيه الآية فقال: فإن قيل: ذكر - سبحانه - ﴿ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ وأفعل إنما يقال لشيئين اشتركا... إلخ؟ قيل: إن أفعل وإن كان كما ذكرت، فقد يستعمل على تقدير بناء الكلام على اعتقاد المخاطب في الشيء في نفسه، قطعاً لكلامه وإظهار لتبكيته، فيقال لمن اعتقد مثلاً في زيد فضلاً وإن لم يكن فيه فضل ولكن لا يمكنه أن ينكر أن عمراً أفضل منه: اخدم عمراً فإنه أفضل من زيد، وعلى ذلك جاء قوله تعالى: ﴿ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾. «روح المعانى»، (٥/ ١٢٢-١٢٣).

والحق أن حذف معمول التقوى هنا يجعلها تشمل كل معانى التقوى، أى التقوى الشاملة، التي لا يشذ معها شيء من الخير، وذلك أن العدل هو ملاك كبح النفس عن الشهوة، وذلك ملاك التقوى.(١)

وهذا يبين لنا أهمية التقوى وقيمتها ودرجتها عند الله، ومدى محبة الله تعالى للمتقين، حيث فرض على النفس هذا التكليف الشاق، وهذا المبدأ الصعب، ولكن يهون على النفس وتتقبله راضية إذا كان في ذلك ما يحب الله من تقوى ويرضى، وما تستقيم به أمور الدنيا.

ولما كان الأمر بالعدل يمكن أن تتململ منه النفس، وتتردد في القيام به، جاءت بداية الآية بهذا النداء المحبب للنفس المثير فيها لكوامن الطاعة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾، ليحملهم على المسارعة لما يتلوه من الأوامر والنواهى، إذ من دواعى الإيمان وأهم سماته وعلاماته المبادرة لامتثال تعاليم الشرع وتوجيهاته، والانصياع التام لأحكامه وتشريعاته.

ثم جاء الأمر بالقيام لله تعالى، وهو كذلك حث على الانقياد لتكاليف الله تعالى، متصل بما قبله من الحث في قوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٧ ﴾.(٢)

وقد رأينا كيف جاء الأمر بالقيام بصيغة المبالغة، لأن من قام مرة أو مرتين لا يعد قواماً لله تعالى، وكذلك لأن كثرة القيام لله تعالى لا تترك مجالاً للقيام لغيره بوجه ما للجور أو للظلم، أو لأية مخالفة للأمر، حتى يكون المرء في قيامه مثالاً

(١) انظر العلامة ابن عاشور «التحرير والتنوير»، (٦/ ١٣٦).

(٢) ومعنى القيام لله هو أن يقوم لله بالحق في كل ما يلزمه القيام به من إظهار العبودية وتعظيم الربوبية.

للتقوى الكاملة لله – جل وعلا – التي يجاهد المرء أن يصل إليها من كل جهة لرضا الله – سبحانه.

وفى الآية تنبيه على أنه – سبحانه – إذا أمر المؤمنين بأن لا يحملهم بغضهم وعداوتهم لأعدائهم وأعدائه على ترك العدل معهم، وأن ذلك أقرب للتقوى، فمن باب الأولى العدل مع المؤمنين وهم أولياؤه وأحباؤه. ترى العدل معهم يصل بالمرء إلى أية درجات التقوى؟[١]

ثم ختم القرآن الكريم الآية بقوله: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾، فإذا كان العدل أقرب للتقوى، فإن التقوى هى المطلوب الأصلى والهدف المنشود، ومن ثم أمر بها مرة أخرى، اعتناءً بشأنها، وتنبيهاً على أنها ملاك الأمر كله.[٢]

ويحتمل الأمر بالتقوى هنا كذلك ما ذهب إليه الإمام ابن جرير الطبرى، من كونها أمراً بالخوف من الله في عدم تطبيق ما سبق من أوامر، مع التنبيه على أن الله خبير بذلك، وأنه لا يخرج عن علمه ما يصنعون فيجزيهم به، يقول – رحمه الله: «واحذروا أيها المؤمنون أن تجوروا في عباده، فتجاوزوا فيهم حكمه وقضاءه الذي بين لكم، فيحل لكم عقوبته وتستوجبوا أليم نكاله، إن الله خبير بما تعملون، أى ذو خبرة وعلم بما تعلمون أيها المؤمنون فيما أمركم به وفيما نهاكم عنه، من عمل به أو خلاف له، محض ذلكم عليكم كله، حتى يجازيكم به

---

(١) راجع الزمخشرى «الكشاف»، (١/ ٣٢٦-٣٢٧). والبيضاوى، (٢/ ٣٠٣). والرازى «التفسير الكبير»، (٥/ ٦١٩). وأبا حيان «البحر المحيط»، (٤/ ١٩٦). وأبا السعود «إرشاد العقل السليم»، (٢/ ١٣).

(٢) انظر أبا السعود «إرشاد العقل السليم»، (٢/ ١٤). والألوسى «روح المعانى»، (٥/ ١٢٣).

جزاءكم، المحسن منكم بإحسانه، والمسيء بإساءته، فاتقوا أن تسيئوا».

وأبو حيان الأندلسى له نظرة أخرى فاحصة ولطيفة في الخاتمة الكريمة للآية، فيقول - رحمه الله[1]: «لما كان الشنآن محله القلب، وهو الحامل على ترك العدل، أمر بالتقوى، وأتى بصفة ﴿ خَبِيرٌ ﴾ ومعناها: عليم، ولكنها تختص بما لطف إدراكه، فناسب هذه الصفة أن ينبه بها على الصفة القلبية».[2]

أى من كون اطلاع الحق على خفايا الصدور، فتجعل المرء مراقباً لربه، يصدر فعله عن هذه المراقبة، مقروناً بالتقوى الباعث على مراعاة الأمر.

ونختم بأن الحق - سبحانه - أظهر الاسم المعظم في قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ لما مر، إدخالاً للروعة في النفس، وإثارةً للمهابة، وتأكيداً على استقلال الجملة.

وأما الموضع التالى فهو قوله تعالى: ﴿ وَإِن طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدۡ فَرَضۡتُمۡ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصۡفُ مَا فَرَضۡتُمۡ إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ٢٣٧ ﴾ [البقرة: ٢٣٧]:

وإذا كانت آية العدل تبين لنا منزلاً ينزله المرء فيكون قريباً من التقوى التي يحب الله ورسوله ﷺ، فهذه الآية الكريمة تبين لنا المنزل الثانى الذي ينزله المرء فيكون كذلك أقرب للتقوى، وهو العفو. وهو من المفارقات العجيبة في أسلوب القرآن الكريم المعجز، أن يكون العدل والعفو أقرب للتقوى، وهما ليسا في كفة واحدة من أوامر الشرع، إذ العدل واجب والعفو مستحب وفضل، ولكن إذا علمنا مقابل العفو، وهو الذي يشاركه في التقوى، ولكن العفو أقرب منه لها،

(١) انظر ابن جرير «جامع البيان»، مجلد٤، (٦/ ٩١).

(٢) انظر أبا حيان «البحر المحيط»، (٤/ ١٩٦).

تبيت لنا هذه المفارقة، فمقابل العفو التمسك بالحق، وهو لا ينافى التقوى، ومن ثم كان العفو أقرب منه لها.

أما العدل فلا يدخل معه في التفصيل شيء، إذ ليس هناك إلا الجور والظلم، فصار أفعل التفضيل هنا على غير بابه كما بينا، من ثم كان العدل قائماً برأسه في كونه هو الأقرب من التقوى.

ولتوضيح ذلك نعود إلى تفسير الآية الكريمة[1]، والذي ملخصه أن المرأة إذا طلقت قبل الدخول بها، وقد فرض لها صداق، فلها نصف هذا الصداق، جبراً لكسرها. واستثنى ما هو أقرب للتقوى - وهو على الأصح من أقوال أهل العلم[2] - أن تعفو المرأة عن نصفها المقدر لها من الصداق، أو يعفو الزوج عن نصف المهر الآخر، حيث في الغالب ما يسلم الزوج المهر كاملاً. ثم ندبهم إلى عدم نسيان هذا التفضل من كل منهما على الآخر، وترك التقصى، والمسامحة، لما كان بينهما من الوصلة التي لا تشبهها وصلة، والتي تدعو رعايتها إلى التسامح. ثم ختم بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، كأنه ترغيب للمحسن، وترهيب

---

(١) وانظر ابن جرير الطبرى «جامع البيان»، مجلد٢، (٢/ ٣٤٠)، وعلى هامشه تفسير النيسابورى، (ص٣٨٢). وأبا حيان «البحر المحيط»، (٢/ ٥٣٩). وابن عطية «المحرر الوجيز»، (١/ ٣٢٠ وما بعدها. والنسفى «مدارك التنزيل وحقائق التأويل»، (١/ ٩٥). وأبا السعود «إرشاد العقل السليم»، (١/ ٢٧٤). والبيضاوى «أنوار التنزيل وأسرار التأويل»، (١/ ٥٣٥). والرازى «التفسير الكبير»، (٣/ ٤٥٠). والقرطبى «الجامع لأحكام القرآن»، مجلد٢، (٣/ ٢٠٨). والزمخشرى «الكشاف»، (١/ ١٤٦). وابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (١/ ٢٨٩). والألوسى «روح البيان»، (٢/ ٢٣٣-٢٣٤). وابن الجوزى «زاد المسير»، (١/ ٢٨١).

(٢) وقد أشار صديق خان إلى هذا الأصح في «فتح البيان»، (١/ ٢٩٣ وما بعدها، بعد ذكر الأقوال وأصحابها.

لغيره، فهو بصير بما عمل كل منكم فيجازيه به.

ونلاحظ أن القرآن الكريم يلاحق هذه القلوب كي تصفو وترف وتخلو من كل شائبة باستجاشة شعور التقوى، ويلاحقها باستجاشة شعور السماحة والتفضل، ويلاحقها باستجاشة شعور مراقبة الله، ليسود التجمل والتفضل هذه العلاقة ناجحةً كانت أم خائبة، ولتبقى القلوب نقية خالصة صافية، موصولة بالله في كل حال.(١)

وليس ثم خلق حميد وسلوك رشيد يحمل المرء على هذه التصرفات الحسنة، إلا تقوى الله – جل وعلا، فالمتقون أهل لأن يبادروا إلى امتثال ذلك، لتسود هذه المعانى النبيلة في مجتمع أهل الإيمان، فلا ترى مكاناً حينئذ لحقد وانتقام، مما نسمع عنه ونقرأ هذه الأيام بين الأزواج وزوجاتهم، ابتداءً بالمحاكم، وانتهاءً بالتقطيع إرباً إرباً في أجولة تلقى في المصارف والترع أو على قوارع الطرق، مما ينهى به الأزواج والزوجات هذه العلاقة، بل حياة الآخر منهما على هذه النحو المفزع البائس، بغير شفقة كانت أو رحمة تكون. وليتأمل المرء سمو الإسلام ونظراته الحانية لما يجب أن تكون عليه الحياة، فاشلة كانت أو ناجحة، وما في اتباع تعاليمه من السعادة في الدنيا والآخرة.

يقول العلامة الطاهر بن عاشور: «ومعنى العفو أقرب للتقوى: أن العفو أقرب إلى صفة التقوى من التمسك بالحق، لأن التمسك بالحق لا ينافى التقوى، لكنه يؤذن بتصلب صاحبه وشدته، والعفو يؤذن بسماحة صاحبه ورحمته، والقلب المطبوع على السماحة والرحمة أقرب إلى التقوى من القلب الصلب الشديد، لأن التقوى تقرب بمقدار قوة الوازع، والوازع شرعى وطبيعى، وفى القلب المفطور على الرأفة والسماحة لين يزغه عن المظالم والقسوة، فتكون

---

(١) انظر سيد قطب «فى ظلال القرآن»، (١/ ٢٥٧).

التقوى أقرب إليه لكثرة أسبابها فيه».(١)

وقد لاحظنا أن القرآن الكريم لم يذكر إلا العدل والعفو في كونهما أقرب للتقوى، وقد رأينا فيما مر معنى ذلك في العفو، ولعل العدل - والله أعلم - لم يذكر مقروناً بالتقوى ذاتها، بل بالقرب منها، لأن في الفضل - وهو فوق العدل - مجالاً واسعاً يكون المرء به من المتقين، فما بالك لو زادهم فوق عدله من كرمه تفضلاً، وقد سمعنا أمثلة مثل ذلك من فعله الشريف ﷺ ، فقد ذكر القاضي عياض في «الشفا»(٢) أمثلة عديدة، منها:

عن أنس ﷺ : كنت مع النبى ﷺ وعليه برد غليظ الحاشية، فجبذه أعرابى بردائه جبذة شديدة، حتى أثرت حاشية البرد في صفحة عاتقه، ثم قال: يا محمد، احمل لى على بعيريَّ هذين من مال الله الذي عندك، فإنك لا تحمل لى من مالك ولا مال أبيك، فسكت النبى ﷺ ثم قال: «المال مال الله، وأنا عبده»، ثم قال: «ويقاد منك يا أعرابى ما فعلت بى؟»، قال: لا، قال: «لم؟!»، قال: لأنك لا تكافئ بالسيئة السيئة، فضحك النبى ﷺ ثم أمر بأن يحمل له على بعير شعير وعلى الآخر تمر.

فرأينا في الحديث الشريف عدله وفضله ﷺ ، وكيف لم يحمله ظلم الأعرابى له ﷺ على أن يعامله بالمثل، بل زاد فوق العدل التفضل.

وهكذا رأينا تلك الجوانب المضيئة للتقوى، التي تجعل الفرد المسلم والمجتمع الإسلامى أرقى وأعز المجتمعات التي يعيش في رباها المرء مطمئناً، يشعر بالرضا والسكينة، يفيض عليه السلام النفسى من جراء تلك المودة

(١) انظر ابن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢/ ٤٠٤).

(٢) انظر الملا على «شرح الشفا بتعريف حقوق المصطفى»، دار الكتب العلمية، بيروت، (١/ ٢٤٣).

والرحمة والتعاطف، فضلاً عما ينتظره في الآخرة من رضوان الله تعالى وحسن مثوبته.

والموضع التالي هو قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ۝٩ ﴾ [المجادلة: ٩]:

وفى سيرنا لاستكمال صورة التقوى نصل إلى النجوى، حيث أمر تعالى بأن يكون تناجى المؤمنين فيما بينهم بالبر والتقوى، فإذا كانت التقوى لها كلمتها التى ينبغى أن تقال نطقاً، وأن تمثل سلوكاً، فإنه كذلك ينبغى أن يكون تناجيهم، أى كلامهم المخصوص الذى يتسارون به بينهم ويخفونه عن غيرهم، لابد أن يكون كذلك، وهذا أدب إسلامى رفيع أن يكون سر المرء وعلانيته براً وتقوى، خاصة إذا كان هذا التناجى يمكن أن يكون سبباً لوقوع الريب والشك فى قلب غيره، فيقع بين المؤمنين بسبب ذلك سوء الظن المؤدى إلى التجسس المنهى عنه، وإلى وقوع البغضاء والشقاق، لتحل محل الألفة والمحبة والاجتماع، بل إن من آداب الإسلام العليا المحافظة على قلب المؤمن، وألا يصدر من أحد ما يكون سبباً لحزن أخيه وتألمه، حفظاً لشعوره ومراعاةً لنفسيته، وفى ذلك يقول رسول الله ﷺ[1]: «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس، من أجل أن ذلك يحزنه»، فإن ذلك يحزنه، فحفظ الإسلام حق الإنسان بهذا الإعلان الخالد، ناهيك عن شتمه وسبه والسخرية به وضربه وسجنه وتعذيبه وقتله، فإن ذلك يحزنه فلا تفعله، وإن لم يتعلق به حق، إذ ما علاقته باثنين يتناجيان ولكل

---

(١) رواه البخارى (٦٢٩٠)، وانظر ابن حجر العسقلانى «فتح البارى»، (١١/ ٨٢-٨٣). ورواه مسلم (٢١٨٤)، وانظر النووى «شرح صحيح مسلم»، (٧/ ٤٢٣).

حريته، لا إن كان ذلك يحزنه، هو أخوك، حريته موقوفة عند حزنه، إن وصلت إليه. ثم انظر إلى ما فى ذلك من السلام، إذ كل أحد آمن الجانب من أخيه لا ينتظر منه أدنى الشر ولا يتوقعه. وتخيل مجتمعاً قد ترك كل واحد انشغاله بغيره، فتفرغوا لهدف واحد، توجهت إليه جهودهم، وتوحدت عليه مقاصدهم، وتآلفت عليه قلوبهم، وهو كيف يترقى هذا المجتمع وينمو ويقوى ويعز، ويصير مرهوب الجانب، مسموع الصوت، صامداً لأعتى قوة كالبنيان المرصوص.

ونعود إلى الآية الكريمة، نستوضح معانيها، حيث بدأت بالخطاب للمؤمنين: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾، وهل هو للمؤمنين الخلص، أو للمنافقين الذين آمنوا فى الظاهر؟ فإن حملنا ما تقدم من الخطاب فى الآية: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ...﴾ على اليهود والمنافقين، كان الخطاب هنا لأهل الإيمان ألا يسلكوا مسلكهم، ونهياً لهم ألا يقتفوا طريقهم طريق الشيطان، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ﴾. وإن حملنا الخطاب السابق على اليهود فقط، جاز أن يكون الخاطب هنا للمنافقين الذين آمنوا بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم.[1]

وإن كان الأولى أن يكون الخطاب للمؤمنين، إذ ذلك المعهود من خطاب القرآن الكريم، وكذلك لما سبق فى قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ﴾، وهو عام لكل من نهى عن ذلك، فشمل اليهود والمنافقين، فلم يبق إلا أن يكون

---

(١) انظر الرازى «التفسير الكبير»، (١٥/ ٤٤٧). والألوسى «روح المعانى»، مجلد١٥، (٢/ ٣٨). والطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٨/ ٣٢). وابن الجوزى «زاد المسير»، (٨/ ١٩٠). والقرطبى «الجامع لأحكام القرآن»، مجلد٩، (١٧/ ٢٩٤).
ورجح صاحب التحرير أن الخطاب للمنافقين، وذكر أدلته، انظر (٢٨/ ٣٢). ولكن المذكور هو اختيار الباحث.

ذلك خطاباً للمؤمنين.

﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ ﴾ [العلق: ٩-١٢]:

هذا هو الموضع التالى من مواضع التقوى. فبعد أن رأينا الموضع الأول – وهو أن الله ﷻ أهل التقوى – رأينا هنا النبى ﷺ هو الآمر بها المبلغ عن الله – سبحانه وتعالى، ولما كان – صلوات الله وسلامه عليه – إمام المتقين، لا جرم كان إمام الآمرين بها والداعين إليها، وهى سنة الأنبياء وطريقتهم جميعاً فى دعوة أقوامهم إلى الله تعالى، كما فى قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [الشعراء: ١٠٦-١٠٨] وهكذا سار على هذا الدرب جميع الأنبياء من توصية أقوامهم وأمرهم بتقوى الله تعالى، وإذا كان الأنبياء قد واجهوا من قومهم الإيذاء والعنت والمشقة فقد واجه ﷺ أعظم المشقة فى دعوة قومه إلى تقوى الله تعالى. والآية من الآيات التى تخبر بشىء مما وقع له ﷺ مع قومه. قال الألوسى فى «روح المعانى»: «لم يختلف المفسرون كما قال ابن عطية فى أن العبد المصلى هو رسول الله ﷺ، والناهى هو اللعين أبو جهل»، فقد أخرج أحمد ومسلم والنسائى وغيرهم عن أبى هريرة ؓ أن أبا جهل حلف باللات والعزى لئن رأى رسول الله ﷺ يصلى ليطأن على رقبته وليعفرن وجهه، فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلى ليفعل، فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقى بيديه، فقيل له: مالك؟ فقال: إن بينى وبينه لخندقاً من نار وهولاً وأجنحة، فقال رسول الله ﷺ : «لو دنا منى لاختطفته الملائكة عضواً عضواً». وفى بعض الأخبار ما ظاهره أنه حصل منه نهى لفظى(١)، فقد أخرج أحمد والترمذى وصححه وغيرهما عن ابن عباس قال: كان النبى ﷺ

(١) العلامة الألوسى «روح المعانى»، مجلد١٦، (٣/ ٣٢٨).

يصلى، فجاء أبو جهل فقال: ألم أنهك عن هذا؟.. الحديث.

ولننظر فى تحليل الآيات:

قوله: ﴿ أَرَءَيْتَ ﴾: كلمة تعجيب من حال، تقال للذى يعلم أنه رأى حالاً عجيبة. واستعمل الاستفهام فيها لأن الحالة العجيبة من شأنها أن يستفهم عن وقوعها استفهام تحقيق وتثبيت لنبئها إذ لا يكاد يُصدَّق به. والرؤية هنا علمية، والمعنى أعجب ما حصل لك من العلم قال الذى ينهى عبداً إذا صلى. والمنهى عنه محذوف يغنى عنه تعليق الظرف بفعل ﴿ يَنْهَىٰ ﴾، أى ينهاه عن صلاته.

وأتى بصيغة المضارع فى قوله ﴿ يَنْهَىٰ ﴾ لاستحضار الحالة العجيبة، كأنها تقع الآن، وإلا فإن نهيه قد مضى.(١) ولمعنى آخر وهو أن هذه الحالة عجيبة فى كل زمان يمكن أن تقع، لذا فهى مذمومة تستدعى التشنيع والتبكيت فى كل وقت، لكل طاغية ينهى عباد الله عن الصلاة. والأمر بتقوى الله، لذا رأينا كلمة ﴿ أَرَءَيْتَ ﴾ هنا متوجهة إلى غير معين كأنها لكل أحد له تميز فى كل آن ومكان.

---

(١) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٣٠/ ٤٤٦-٤٤٧). والفخر الرازى «التفسير الكبير»، (١٦/ ٥٢٠).

وقد ذكر فى التحرير فائدة العدول عن التعبير بضمير الخطاب (ينهاك) إلى (ينهى عبداً)، فقال: «لأن التعجب من نفس النهى عن الصلاة بقطع النظر عن خصوصية المصلى».

وقد ذكر الإمام الرازى فى «التفسير الكبير» فوائد ملخصها أن التنكير فى (عبداً) يدل على كونه كاملاً فى العبودية، وثانيها أن هذا أبلغ فى الذم، لأن المعنى أن هذا دأبه وعادته، فينهى كل من يرى، وثالثها أن هذا تخويف لكل من نهى عن الصلاة. ورد أن على ﷺ رأى أقواماً يصلون قبل العيد، فقال: ما رأيت رسول الله ﷺ يفعل ذلك، فقيل: ألا تنهاهم؟ فقال: أخشى أن أدخل تحت قوله تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴾. وأخذ هذا الأدب أبو حنيفة ﷺ . ورابعها: أيظن أبو جهل إذا لم يسجد لى محمد ألا يسجد لى غيره. وخامسها: تفخيم شأن النبى ﷺ كأنه مع التنكير معرف. راجع (ص٥١٨-٥١٩) لتفصيله.

يقول الأستاذ/ سيد قطب: «والتشنيع والتعجيب واضح فى طريقة التعبير، التى تتعذر مجاراتها فى لغة الكتابة، ولا تؤدى إلا فى أسلوب الخطاب الحى، الذى يعبر باللمسات المتقطعة فى خفة وسرعة! ﴿ أَرَءَيْتَ ﴾؟ أرأيت هذا الأمر المستنكر؟ أرأيته يقع؟ ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ ﴾؟».[(١)]

ولقد ذكرنا هذه المقدمة لأن قوله: ﴿ إِذَا صَلَّىٰٓ ﴾ مرتبط بقوله: ﴿ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢ ﴾، كأن الصلاة هى كون المرء على الهدى آمراً بالتقوى، وقد أشار إلى ذلك الفخر الرازى، حيث أوردها على صيغة سؤال مفاده أن المذكور فى أول الآية هو الصلاة، والهدى فى فعل الصلاة، فلم أضاف إليها شيئاً ثانياً وهو قوله تعالى: ﴿ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢ ﴾، وأجاب – رحمه الله – بثلاثة أوجه، نذكر منها وجهاً واحداً، وهو:

«أنه ﷺ كان فى صلاته على الهدى وآمراً بالتقوى، لأن كل من رآه وهو فى الصلاة كان يرق قلبه فيميل إلى الإيمان، فكان فعل الصلاة دعوة بلسان الفعل، وهو أقوى من الدعوة بلسان القول».[(٢)]

عدنا إذاً إلى قوله: ﴿ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢ ﴾ مرتبطاً بالآية قبلها، وقد اخترنا أنه النبى ﷺ[(٣)]، والمعنى تعجيب آخر، أى:

---

(١) سيد قطب «فى ظلال القرآن»، (٦/).

(٢) ذكر الرازى فى «التفسير الكبير» وجهين آخرين، وإلى مثل ذلك أشار فى «روح المعانى»، (١٦/ ٣٣٢–٣٣٣)، فقال: «وكان الظاهر عليه أن يذكر فى الجملة الأولى أيضاً أن يقال: أرأيت الذى ينهى عبداً إذا صلى أو أمر بالتقوى، لكنه حذف اكتفاء بذكره فى الثانية، واقتصر على ذكر الصلاة ولم يعكس، لأن الأمر بالتقوى دعوة قولية والصلاة دعوة فعلية، والفعل أقوى من القول... إلخ».

(٣) والآية محتملة لتفسير ثانٍ، انظر الألوسى «روح المعانى»، (١٦/ ٣٣)، وأبا السعود «إرشاد العقل السليم»، (٥/ ٨٨٧)، والبيضاوى «أسرار التنزيل»، (٥/ ٥١١)، والرازى «التفسير الكبير»، (١٦/ ٥٢٠).

أرأيت إن كان العبد على الهدى، أينهاه عن الهدى، وإن كان العبد آمراً بالتقوى أينهاه عن التقوى، ذلك هو الظن به، فيعجَّب المخاطب من ذلك، لأن من ينهى عن الصلاة وهى قربة إلى الله، فقد نهى عن الهدى ويوشك أن ينهى عن أن يأمر أحد بالتقوى. وقد عبر القرآن الكريم بـ﴿ عَلَى ﴾ فى قوله: ﴿ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴾، لتبين شدة التمكن من الهدى، بحيث يشبه تمكن المستعلى من المكان، وهو من الاستعلاء المجازى. وقد أشرنا إلى التفخيم فى تنكير ﴿ عَبْدًا ﴾ ويكون المعنى: أينهى العبد الذى هو فى النهاية من العبودية لله تعالى، والمتمكن أشد التمكن من الهدى، أينهاه عن الهدى؟ فما أعجب ذلك! أينهاه عن الأمر بالتقوى؟ فما أعجب ذلك! وفيه من التشنيع على هذا الفعل القبيح والقول الكريه ما فيه، وهو عام فى كل أحد يقول هذا القول المنكر ويفعل هذا الفعل المستقبح، وإنذار من الله تعالى كذلك لكل من يتعاطى هذا الصد عن سبيل الله تعالى أن يكون عقابه من جنس عمله فى السوء والشناعة، ولم يسكت القرآن الكريم عن هذا العذاب المنتظر والجزاء الواقع، بل صرح به فى نهاية السورة بقوله: ﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ ﴾، حيث وصفه بهذا الوصف القبيح، ثم أشار إلى أن عذابه سيطول أعلى مكان فى جبهته التى يرفعها متكبرً متشامخاً، بأن يؤخذ منها ويجرجر إلى النار بشدة لا توصف، وبقسوة لا تخطر ببال، وبذلة ومهانة لا تتصور، جزاءً وفاقاً، ناصية الكاذب الخاطئ المذنب الأثيم.

كل ذلك يبين لنا قيمة الأمر بالتقوى، وقيمة الآمر بها، إذ كان الناهى عنها بتلك الصفة وله تلك النهاية.

فإذا كان الناهى عن التقوى صاحب ناصية كاذبة خاطئة، فلاشك أن الآمر بالتقوى صاحب ناصية صادقة صالحة مستقيمة غير آثمة ولا مذنبة، يأمر بالتقوى، ويوجه إليها، ويدعو لها، ويوصى بها.

وتبين الآية لنا خطر الأمر بالتقوى وعظيم فضله، وأنه لا ينبغى لأهل

الإيمان أن يتخلوا عن تلك المهمة والقيام بأعبائها وتحمل تبعاتها، وعليهم أن ينتظروا من الله تعالى شيئين:

الأول: دفاع الله تعالى عنهم والقيام لهم، وأنه يحفظهم من كيد أعدائهم، ومن الشرور المحدقة بهم، كما ذكرنا ذلك فى قصة أبى جهل مع النبى وكما قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ [الحج: ٣٨]، ومهما لاقوا فى سبيل الله تعالى والدعوة إليه فإن العاقبة لهم ﴿ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

الثانى: عظيم جزاء الله لهم، المقابل لجزاء الناهى عن التقوى، فإذا كان هذا له السفع فى الناصية، فذلك له الإعظام والتكريم فى دار الخلد، جزاءً بما كان يعمل ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحجرات: ٤٥-٤٦].

وتبين الآيات أن الأمر بالتقوى من وظيفة الرسل الكرام – عليهم الصلاة والسلام، فالقائمون بذلك من أتباعهم، إذا قائمون بأعظم مهمة، متحملون لأعظم أمانة، فما أعظمهم وأعظم مهمتهم، وما أجملهم وأجمل جزاءهم، وأعجب بهم واندهش لهم، فهم فى الدرجة العليا من ثناء الله عليهم.

وتشير الآيات بجلاء إلى أنه ينبغى ألا يأمر بالتقوى ولا يدعو لها إلا من تحقق بها، وتمكن منها فى نفسه، فلا يقوم بإصلاح غيره إلا من أصلح نفسه واهتم بها ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [الصف: ٣]، فقوله إذاً هباءً لا يقوم على أساس راسخ ولا أصل ثابت، وإنما هو متاجر بالدين، يقول ما لا يفعل، فلاشك أن مثل هذا لا تؤثر دعوته، ولا تؤتى ثمرتها، ويخشى عليه فى الأولى والآخرة، وإن كان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لازماً على أى حال.

وتبين الآيات درجة النبى ﷺ العظيمة، ورتبته العالية فى كونه أعظم من دعا

إلى تقوى الله تعالى، وتحمل فى سبيل ذلك أعظم المشقات والمتاعب، كل ذلك حتى أتاه اليقين، فما أن جاءه أمر الحق تعالى: ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ ﴾ [المدثر: ٢] لم يتوان لحظة واحدة عن هذا الإنذار، إلى أن لقى الله – جل وعلا – وهو للمسلمين القدوة الحسنة والمثل الأعلى الذى لابد لهم أن يمتثلوه ظاهراً وباطناً، إن كانوا يرجون رفع رايتهم فى الدنيا وعلو منـزلتهم فى الآخرة ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ۝٢١ ﴾ [الأحزاب: ٢١].

فبينت هذه الكلمات الموجزة من كلام الله المبارك – بعد أن اتضح أن الله سبحانه أهل التقوى – لزوم الأمر بالتقوى مع التزود بزادها، وأن الرسول ﷺ أعظم من دعا إلى التقوى، وتحمل فى سبيلها. وبينت جزاء التقوى وعظمها، وعاقبة المانعين من الأمر بها وعدم طاعتهم فى ترك الأمر بها، وإحاطة الله ومنعته للدعاة لها، مهما بدا أمرهم فى الدنيا على غير ذلك، وهى دعوة لأهل الإيمان فى كل زمان ومكان لأن يدعو إلى الله، مهما منعهم الطغاة من ذلك ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ ﴾ [العلق: ٦]، وأن يثبتوا والعاقبة لهم.

كان هذا آخر الكلام على هذا الموضع، مقصود المؤمن فيما يأتي أو يذر بل في كافة أعماله وتصرفاته ونياته وتوجهاته هو تقوى الله -تعالى-.

المطلب العاشر
التقوى أساس قبول العمل

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة: ٢٧]:

هذه الآية الكريمة وثيقة الصلة بتلك الآيات الكريمات السابقات، فحيث حلت التقوى في القلب والعمل من العبد فإن الله يقبل أعماله؛ لأن هذه الأعمال كذلك كانت السبب في محبة الله له، إذ لو كانت طاعته وقربانه في غير محل القبول ما وصل العبد إلى محبة الله ولا ولايته؛ أعماله مردودة لفقدها أحد شرطي القبول -الإخلاص والمتابعة.

يقول الزمخشري في «الكشاف»: «وفيه دليل على أن الله تعالى لا يقبل طاعة إلا مؤمن متق، فما أنعاه على أكثر العاملين أعمالهم! وعن عامر أنه بكى حين حضرته الوفاة، فقيل له: ما يبكيك فقد كنت كذا وكذا؟ قال: إني أسمع الله يقول: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾»[(١)].

وكان الصحابة - رضوان الله عليهم - المثل الأعلى في الفهم والعمل، لذلك ورد عنهم ما يبين قيمة التقوى، يقول الحافظ بن كثير في تفسيره: «كان ابن عمر ﷺ يقول: «لو علمت أن الله تعالى تقبل مني سجدة واحدة أو درهماً صدقة؛ ما كان غائب أحب إليَّ من الموت: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[(٢)]، ومن الجدير بالذكر أن هذا التعبير القرآني الفريد قد جاء في سياق قصة ابني آدم، التي

---

(٢) جار الله محمود الزمخشري «الكشاف»، (١/ ٣٣٣). وقد ذكر الطبري أثر عامر هذا في تفسيره، مجلد٤، (٦/ ١٢٣)، وذكر النسفي كلام الزمخشري، (١/ ٢٠٧)، ونقله بنصه في «روح المعاني» الألوسي، مجلد٤، (٦/ ١٦٥).

(2) العلامة الشيخ محمد السفا ريني الحنبلي «نفثات صدر المكمد وقرة عين المسعد لشرح ثلاثيات مسند الإمام أحمد»، ت١١٨٨هـ، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩١هـ، (١/ ٤٦).

قصها علينا القرآن الكريم، لتبين قبول الله طاعة المتقين دون غيرهم، حيث قال تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [المائدة: ٢٧]، وهذا يبين قيمة التقوى لأن أحد القربانين صار مقبولاً والآخر مردوداً، لأن حصول التقوى شرط في قبول الأعمال، قال تعالى هاهنا، حكايةً عن المحق: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾، وقال – سبحانه – فيما أمرنا من القربان بالبدن: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ [الحج: ٣٧]، والتقوى من صفات القلوب قال ﷺ: «التقوى هاهنا»، وأشار إلى صدره ثلاثاً.[1]

(1) الإمام محمد بن عمر الرازى، «التفسير الكبير»، (٥/ ٦٥٣).
وقد أغرب العلامة الكبير الإمام الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في تفسير الآية، حيث ذكر في نهاية ما ذكره من أقوال قوله: «ومعنى هذا الحصر أن الله لا يتقبل من غير المتقين وكان ذلك شرع زمانهم» ا.هـ. الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٦/ ١٧٠). وما ذكرنا لكافة المفسرين غنية في الموضوع.